

من سلسلة
حكايات على ضفاف الخليج
الوهم
تأليف
محمد عبد العزيز أحمد الباكر
الطبعة العشرون يناير 2008
إهداء

- إلى المنحة الإلهية العظيمة
- إلى قارورة العطر التي عيقت بدايات الخريف بنسمات الربيع العطرة
- إلى الثمرة التي أينعت فأزالت بحلاوتها مرارة الحياة
- إلى النسمة المحملة بالأمل في المستقبل الزاهر لأجيال الغد
- إلى الضيف الذي رسم بضحكاته وصرخاته ألوان الطيف الزاهية
- إلى ولدي عبد العزيز
- محمد عبد العزيز أحمد الباكر

]

المقدمة

قضت مشيئة الله وإرادته بديمومة الصراع بين الخلق لحكمة يعلمها، ربما لتستبين البشرية به درب الحق من هاوية الباطل، ومسار الخير من مستنقع الضلال.

ورغم التراكمات المعرفية التي أصابتها البشرية منذ النشأة الأولى منذ آدم، ورغم الكم الكبير من التجارب ونتائجها على مدار العمر البشري الضارب في عمق أعماق التاريخ، وحتى اللحظة التي ينتهي فيها القلم من تسجيل النقطة الأخيرة في خاتمة هذا العمل - بل وحتى تقضي إرادة الله ومشيئته مرة أخرى - سنظل رياح الشر تعصف وتعوي وتدوي لتسجل انتصارها الأثم والرخيص، وما هي إلا برهة بمقاييس الزمن مهما طال الوقت حتى تنتفض قوى الخير الساحقة بجبروتها وقوتها لينجلي بعدها ليل الظلم بحلكنه وديجوره وتشرق الشمس وتهب نسيمات الحياة الربيعية بخيرها وخصبها، معبقة بالإيمان والأمل، وتعاود الحياة سيرها ومسيرها مفعمة بذلك الصراع الأبدي بين الحق والخير من جهة، وبين الشر والباطل من جهة أخرى.

فجولة الظلم ساعة، وجولة الحق والعدل إلى قيام الساعة.

محمد عبد العزيز أحمد الباكر

الوهم

كان الزمان يمضي في مساره المعهود والمقدر له منذ الأزل، وكانت الأيام تتوالى بلا معنى أو قيمة كأوراق الشجر الذابلة التي بعثرتها رياح الخريف ووقعت على وثيقة نهايتها وفنائها.

ودون أن يدري يعتلي الإنسان بمولده موجات الزمن لتنتقله من شاطئ الحياة وميلادها إلى ضفاف الموت والنهاية، حيث يولد على شاطئ ويموت بوصوله إلى الشاطئ الآخر، وبين الضفتين يقضي عمره مصارعاً أمواج الحياة، دونما هدف أو غاية تحمل معنى أو قيمة.

وكانت الشمس بقرصها الملتهب القاني تداعب ظهور الموج في دلال، وهي تترنح كأنها سكرى منتشية بما منحته من نور غمرت به ذلك الجانب من الكرة الأرضية، مؤدية بذلك واجبها المقدر، أو ربما كانت تعباً مرهقة بعد عناء دام نهار اليوم وهي تؤدي ما عليها بكل التزام وطاعة للخالق سبحانه الذي قدر لها ما شاء بحكمته وقدرته دونما خلل أو خطأ.

ورغم بدايات الصيف المعهودة في تلك المدينة العربية المنعزلة على الشاطئ، حيث تبقى من إبريل ثلثة الأخير، إلا أن الطقس في تلك اللحظات كان رائعاً تزينه نسيمات ربيعية باردة قادمة من جهة الشمال، محملة برائحة البحر المنعشة.

ومع كل ذلك كان المناخ العام للكون مجللاً بالرهبة والترقب والخشوع، ولم تفلح تلك النسيمات الباردة اللعوب في الوصول إلى أعماق النفوس التي شمخها الحزن، لتغير من قسماتها، وتنعكس على الوجوه المتعبة والمقطوبة القسامات.

حتى الأطفال الذين كانوا يلعبون ويمرحون في حدائق الكورنيش الخضراء الرائعة كانوا يبكون وكأنهم لا يؤدون أداءً مخلصاً من القلب خلال لعبهم، بل ربما كانوا فقط يكسرون الوقت ويستعجلون العودة.

وعلى التلة الخضراء المجاورة كانت إحدى الأسر تفتش بساطها فوق العشب بجوار العديد من الأسر الأخرى المقيمة على أرض تلك المدينة في ونام وأمان... صرخات الأطفال وصياحهم في أثناء اللعب كان حاداً وطاغياً، الأمر الذي أجبر صبيبا يكبرهم عمراً وبنية - كان يجلس على منحدر التل هادئاً متكئاً بوجهه على ساعديه اللذين وضعهما على ركبتيه وهو يواجه البحر - على النهوض رافعاً وجهه إلى السماء، متابِعاً إحدى طائرات الركاب وهي تنزلق في الهواء صوب مدرج الهبوط في مطار قريب.

لحظات بعدها وأصبح هواء المدينة كله معبِقاً بعطر النداء العظيم: الله أكبر الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .. تحمله النسمات مباركاً إلى الصدور الملتهبة التعب، لتنتفتح فيها طاقات من النور والأمل، ولتنسخ فيها روحاً جديدة ومنتجدة من الثقة والاطمئنان.

بعده اصطفت الصفوف لأداء الصلاة على البساط الأخضر، وهذا الضجيج قليلاً وكان الفتى هناك في المؤخرة يؤدي الصلاة مع الجماعة خاشعاً... ما أعجب هذا الفتى الرائع الذي لفحه النضوج مبكراً بشكل لافت... نعم يبدو عليه ذلك تماماً، وإن بدت عليه أيضاً علامات من القلق النفسي والمعاناة.

رجل كان هناك وحيداً بدا عليه أنه ليس من مواطني المدينة، وإن كان يبدو عليه أنه عربي أيضاً، ربما كان أحد المقيمين هنا من أجل العمل، عفوًا من أجل العيش، وأسرته هناك بعيداً في موطنه.. كان يجلس على السياج الحجري للكورنيش المطل على المياه مباشرة، كان يجلس بزواية يطالع الماء تارة ويدير وجهه صوب الأطفال تارة أخرى... آه.. ربما كان يعزي نفسه بتذكر أطفاله هناك بعيداً في بلده. إنه الشوق الكبير والعاطفة الجياشة الدافئة لدينا نحن أبناء الإنسانية وإن اختلفت الثقافات والأجناس البشرية... لا أحد يبدو سعيداً.. من يملك ومن لا يملك.. الفقير والغني كلاهما يملكان معاً شرياناً من الشقاء والتعاسة... إيفاع الحياة يمضي ببضع وبرود لا يتوقف لسعادة هنا أو شقاء هناك... إنه يمضي وحسب دونما أكثرات لآلام البشرية أو لسعادتها.

والحقد يبرز ويكثر عن أنيابه في مواجهة الحب الصعب المسالم والوديع. أحقا نحن نعيش.. ولماذا؟ سؤال محير وصعب للضعفاء الذين لا يملكون القدرة على الإجابة... أفيقوا أيها الأغنياء، إنه الإيمان العظيم بالخالق وناموسه الذي وهبه للبشرية هدياً ومنارة.

فاصل مزعج من الأفكار المتضاربة التي هاجمت فكر ذلك الرجل والد الفتى الذي أدى صلاة المغرب لتوه وهو يتذكر ولده... ذلك الفتى اليافع الذي ألقفه التغيير النفسي الذي أصابه وهو يشاهد الصور التليفزيونية المتتابعة على قنوات «الكبيل»، وهي تبرز مشاهد القتل والدمار وأشلاء الضحايا... بقايا أطفال، رؤوس ووجوه مشوهة تتدلى من حمالات أو أبواب سيارات محترقة.

ولم لا يلقى وينزعج على ولده وكل ما في الحياة يدعو للقلق والانزعاج رغم البحبوحة والمستوى الجيد المتوفر من الحياة الكريمة؟! العالم يصاب بالجنون والبشرية تكاد تترد وتحتمك إلى شريعة الغاب في تعاملها.. الحضارة الإنسانية... أي حضارة تلك التي تتيح للإنسان أن يحتكم إلى طمعه وجشعه وغريزة الكراهية والحقد المدفونة والمتأصلة داخل نفسه؟! أي حضارة تتيح للإنسان أن يتحلل من كل النواميس والعقائد السماوية السمحة وقوانين الأخلاق التي وضعت وأنزلت لتنظم حياته وتهبه الأمان وتمنحه دفء الإنسانية والرحمة والترحم؟! عجب أمر هذا العالم الذي يتشدد بالحضارة والرقي ويترنم بأهازيج كاذبة عن التقدم والتطور وحقوق الإنسان! وكل النتائج - دون استثناء - دموع ودماء... دمار وأشلاء.. واغتصاب... وفي النهاية أيضاً يقولون: حضارة وتطور وتقدم وحقوق الإنسان!! عجب عجاب... آه.. ما أجمل الأمس وما أروع الماضي بسكونه ووداعته واطمئنانه!! يرتسم الفريج داخلي بدواعيسه وطيبه أهله والخير الذي يتدفق في تلك الدواعيس فياضاً... لم يكن مالا ولا سيارات ولا بيوتاً فاخرة فارهة، بل كان نفوساً ممثلة بالرقي الإنساني الحقيقي والقيم الخيرة والرحمة والتراحم... وفجأة يفيق الرجل على صوت أت من خلفه كأنه مطرقة هوت على قطعة من حديد أجوف خلف أذنه... لا تتعب حالك... هذا هو حال الدنيا. استدار فجأة ليجد اثنين من الأصدقاء يتحاوران في أمر ما وهما بيتعدان، هب واقفاً بعدها وهو يتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وينادي على زوجته وأبنائه: ذلك الفتى اليافع الذي يثير هواجس قلقه... وطفلتان تتراوح أعمارهما بين الخامسة والثامنة كانتا تجلسان بجوار أمهما في وداعة، بعد أن استمتعنا معاً باللعب على الألعاب الموجودة على مقربة من مكان جلوس أمهما.

أرعى الليل أستار ظلمته وبدت منطقة الحديقة والامتداد الدائري للكورنيش بأضواء المصابيح وواجهات البنايات المضيئة المحاذية للشارع الدائري.. رائعة ساحرة وأضفت أضواء السيارات المتسارعة على المنظر العام جمالاً وروعة... يكاد المرء أن يتخيل من خلال نظرة بانورامية شاملة أن عقداً من اللألى والماسات والأحجار الكريمة المتوهجة بألوانها وبريقها، يطوق جيد هذه المدينة العربية الرائعة الوادعة.. نهضت الأم وابنتاها وأخذ الرجل يجول بصره باحثاً عن ولده الذي كان يقف هناك مستنداً على السياج الحجري، متجهًا ببصره نحو الظلام الكثيف والمخيف الذي يغطي بملحفة سطح المياه بلا نهاية.

ورغم الصوت الواضح لنداء والده إلا أنه يبدو أن الفتى كان غارقاً في لجة ظلماء من التأمل والسهوم... واندفع الرجل تجاه ولده بمشاعر مختلطة بين الحزن والحنان الأبوي حتى اقترب منه، وبهدوء وعطف أبوي وضع يده على كتفه وهو يدعو للذهاب إلى المنزل.

أفاق الفتى من تأملاته مبسماً لوالده ابتساماً حاول بها حجب مشاعره التي كانت تتفاعل في قرارة نفسه عن والده.. لكن هيهات... كان الأب على يقين بأن ولده يعاني وها قد جاءت الفرصة ليجلس معه محاولاً سبر أغواره وتلمس ما يعانيه. سار الرجل واضعاً يده اليميني على كتف ولده باتجاه امرأته وبناته اللاتي تبعنه إلا الصغيرة التي ركضت لتلحق بوالدها وتعلقت بيده اليسرى، ممسكة براحته، حتى وصل الجميع إلى السيارة الأمريكية المتوقفة على جانب الطريق العام واستقلها الجميع متوجهين إلى المنزل.

ومن طرف عينه كان الأب يراقب ولده الذي ركب بجانبه، وراح الفتى ينظر إلى الطريق أمامه مثبتاً عينيه كأنما ارتسمت أمامه صورة يطالعها... كان ينظر إلى لا شيء.

باختصار كان الفتى يغالب مشاعر خاصة تكونت من خلالها مشاهد وصور داخل عقله، كان يراها داخل وعيه الداخلي وعقله الباطن... ربما كانت هناك أشياء صدمت مشاعره من خلال أشياء ملموسة رآها وظلت آثارها تتضخم داخل وعيه حتى ملكت عليه تفكيره واستولت تماماً على عقله.

وأخذ الأب يقبل فكره عما يكون قد أهم فتى في الحادية عشرة من عمره، وجعله ساهماً ومكثباً إلى هذه الدرجة... ولم يسعفه تفكيره إلى الانتهاء لما يمكن أن يكون قد أصاب ولده ذلك الفتى الغض الذي كان إلى الأمس القريب مثلاً على الحركة والنشاط، والمرح والعنف أحياناً، الذي كان سمة تميز سنه كأقرانه، وذلك أمر طبيعي. وتحولت أفكار الرجل بشكل طبيعي متراجعة إلى الماضي البعيد؛ ليجوس بوعيه الباطن المخزون في خلايا ذاكرته خلال دواعيس تلك الذاكرة وخفاياها، مستعيداً شريطاً هائل الروعة والجاذبية ليرى خلالها فترة طفولته وصباه، حلماً لا يمت إلى الواقع ولا حتى يقاربه في السعادة الغامرة والهناء والفرح الحقيقيين، كانت طفولة حقيقية رغم اختلاف الإمكانيات المتوفرة الآن والمتاحة للأبناء الحاليين - أبناء هذا العصر - وشعر الرجل بسعادة وراحة، ولمعت في عينيه الفرحة وهو يسترسل في استرجاع الصور والمشاهد التي سكنت ذاكرته خلال فترة طفولته وصباه.

وسرعان ما أفاق على صوت ابنته الصغرى وهي تطلب منه أن يشتري لها «الآيس كريم» الذي تحبه قبل الوصول إلى المنزل، وكان قد أوشك على الوصول إلى بابها، إلا أنه تجاوزه مواصلاً سيره حتى ابتاع لها ولأبنائه الباقين كمية منه وقفل عائداً، وما هي إلا لحظات حتى كان الجميع داخل البيت.

بدل الرجل ملابسه في غرفة نومه وتوجه إلى غرفة ولده، فلم يجده، وكانت الأم مع بناتها في غرفتهن، إلا أنه لاحظ ولأول مرة ملصقات لصور غريبة تملأ الحائط المقابل لطاولة ولده التي يراجع عليها دروسه، كصور طائرات وأطباق طائرة ومركبات فضائية وسيارات سباق، إضافة إلى صور نجوم رياضتها وبعض الرياضات الأخرى العنيفة، كما لاحظ أن العديد من كتب ولده ودفاتره المدرسية مبعثرة على الطاولة وبعضها ملقى على أرضية الغرفة، وعلى جانب الطاولة كانت أجهزة الألعاب والتسليية الإلكترونية مرتبة ومنظمة كجهاز الآتاري وأشرطته، والتي عادة ما كان يسمع شجاراً خافتاً أحياناً بين الأم وولدها لكثرة ممارسته لتلك الألعاب على حساب دراسته.

توجه بعدها إلى المجلس ليجد ولده جالساً باهتمام وعن قرب أمام التلفاز يشاهد برنامجاً إخبارياً عن الحرب التي كانت دائرة في تلك الأونة بين قوى ظالمة غاشمة غازية وأخرى تدافع عن حقها في الحياة. كانت قذائف طائرات الغزاة خلال هذه الحرب تنطلق في السماء مخلفة وراءها ذلك الذيل الأبيض الطويل متوجهة إلى أهدافها لتصيبها بدقة... كانت تماماً تشبه تلك الألعاب الإلكترونية في دقتها. ويتغير المشهد إلى صورة أخرى، وهي الشاشة الرادارية الموجهة للقذائف أمام الطيار حين يوجهها بدقة إلى هدفها لتصيبها، حيث يظهر الهدف في نهاية الأمر، وقد تحول إلى كرة من لهب، وحين ينقشع الدخان تظهر صور الأشلاء والضحايا والدمار.

ومن ثم تتوالى مشاهد الأطفال القتلى والجثث الممزقة لأطفال في مثل عمره وأعمار أخواته وأصدقائه، وبيوت مهتمة محطة يجلس من بقي من أصحابها على قيد الحياة فوق أطلالها، يصرخون وينوحون مذهولين من الدمار الذي لحق بها... أه.. ليس هذا فقط الذي يجري في هذا البلد العربي المسالم والوديع... من كل مكان في العالم تتوالى أشباه تلك الصور، صور القتل والدمار من إفريقيا وآسيا وغيرها، يتعرض الإنسان فيها إلى القتل والذبح والإبادة.

رُخم هائل من الكراهية والحقد والخوف يتدفق عبر الشاشات والأجهزة التي حولت الكرة الأرضية إلى كرة في حجم كرة القدم. لم ينتبه الفتى لوالده الذي تسلل في هدوء وجلس خلف ولده يتابع وينقل بصره بين شاشة التلفاز والأحداث التي تجري عليها وبين ولده، إلى أن انتهى البرنامج فاقرب من ولده بهدوء واحتضنه - ربما لأول مرة منذ زمن - في صدره وهو يشعر بحنان غريب ودافق يتدفق داخله تجاه ولده الذي شعر براحة واطمئنان، ويدا والده تطوقانه..

وسأله أبوه قائلاً: - ولدي ما الذي يحزنك؟ ثم استرسل قائلاً: أراك حزيباً ومهموماً هذه الأيام هل ينقصك شيء..؟ هل تعاني من شيء..؟ قل لأبيك.. صارحني أيها الرجل الكبير. قالها وهو يبتسم لولده.

أطرق الولد برأسه قليلاً وهو يبتسم ابتسامة شاحبة، ورد على سؤال والده بالنفي قائلاً: لا شيء.. لا أعاني من أي شيء. - إذن ما الذي غيرك؟ صارح والدك يا بني ولا تخجل، واطلب ما تشاء.

ثم تساءل قائلاً: هل الأمور في مدرستك على ما يرام؟ أجاب الفتى: صدقتي يا أبي كل شيء على ما يرام، وأدرس بشكل جيد، وعلاماتي في الصف جيدة. قَبَل الأب ولده على رأسه، ودعا الله أن يهديه. ونهض الفتى متوجهاً إلى غرفته وغاب خلف بابها.

لا شك في أن الظروف العامة والأحداث تنعكس بشكل قوي ومباشر على نفوس البشر - أيا كانوا - على اختلاف مشاربهم وأعرافهم، فالنفس البشرية التي خلقها الله واحدة لا تميز بينها، اللهم إلا في الثقافات والعقائد وأساليب الحياة والمناخ البيئي المحيط.. والإنسان هو الإنسان: أسوده وأبيضه وأصفه، يمتلك شحنة إنسانية من الأحاسيس والمشاعر، يفرح ويتألم ويشقى ويسعد، ويتأثر بالأحداث أيما تأثر حين يسمعها أو يراها ويلمسها.

وفي خضم تلك الثورة التكنولوجية الهائلة والقفرة العلمية المدهشة أصبح العالم كله بأحداثه وحوادثه في متناول يد الإنسان، أي إنسان يستوعب ويعقل. وهكذا يبدو أن المفاصل المترابكة والمتتابعة للأحداث حول العالم التي تشكل سيناريو إحدى القصص السينمائية الواقعية،

إضافة إلى المناخات المحلية المحيطة الحولي بالأحداث، والتي سهلت ويسرت تداولها تلك الأجهزة السحرية الرائعة المتمثلة في التلفاز والتليفون وأجهزة الكمبيوتر والاتصالات - سيكون لها دورها المشهود في إعادة صياغة المجتمعات الإنسانية وتأجيج صراعات الحياة في مجملها داخل تلك المجتمعات من ناحية وبين بعضها البعض من ناحية أخرى.

لقد تهيأ الفتى تمامًا لاستقبال الرسالة وبدأت التفاعات النفسية والعقلية تلعب دورها داخله.. كان يتلقى الأحداث بعينيه وأذنيه لتستقر داخل عقله البشري الذي أصبح يجاهد ليفهم مفردات ما يحدث بروحه البريئة وعقله الطاهر النظيف.

كانت روح الفتى ونفسه كورقة بيضاء جاهزة ومستعدة تمامًا للتلقي والتسجيل، ومن ثم الفرز والمقارنة بين الخير والشر... بين الصالح والطالح... بين الخطأ والصواب. ربما لم يكن الفتى - مع خبرته الطفولية الضحلة في الحياة ومع عقله وإدراكه المحدودين - على القدر المطلوب من الكفاءة والقدرة على التعامل مع تلك المرئيات والمحسوسات التي تحاصره من كل اتجاه، لكنه مع عوارض الاكتئاب والتغير النفسي التي طرأت عليه كان قد بدأ يعاني ويجاهد للوصول إلى حالة التعامل مطمئن والطبيعي مع تلك الأحداث واستيعابها بمنطق يتسق مع الطبع البشري العادي القادر في مثل هذه الأمور.

وهكذا كان الفتى بقدر ما كان المجتمع بعاداته وتقاليده، وبالطبع كان المنزل - وهو أول المجتمعات الإنسانية التي ينتمي إليها - يغرس في نفسه قيمًا إنسانية رفيعة ومثلاً علياً، ويحارب فيه أنماط الشر قبل أن تسجل على خلايا ذاكرته.

كان الفتى يجابه طوفاناً من الشر يراه على شاشات التليفزيون يفيض بالقتل والدمار والدماء والأشلاء لأطفال وقتيان في مثل سنه وأخواته، ورجال ونساء مثل أبيه وأمه. كان يحاول أن يتأكد من خلال حوارات نفسية تمور داخله أنه بعيد بما يكفي عن تلك الشرور والمجازر التي يرتكبها الإنسان ضد أخيه الإنسان في بقاع الأرض المختلفة.

وكان يحاول أن يطمئن أن ذلك لن يحدث له ولأهله حتى في المستقبل.. علامات استفهام متشابكة لا حصر لها... أسئلة كثيرة ومحاولات أكثر للإجابة عليها ذاتياً.. والعقل الصغير القليل الخبرة والمعرفة يعجز عن الإجابة... ومن هنا بدأت المشكلة.

جلس الفتى إلى طاولته الصغيرة في محاولة لمراجعة دروسه، لكنه وجد نفسه يحدق في الصور المعلقة على حائط غرفته المقابل لطاولته، خاصة صور تلك الطائرات والمركبات الفضائية والأطباق الطائرة التي يرى عمليات انطلاقها أحياناً خلال مشاهدته للتليفزيون، وتتداعى أسماء تلك المركبات على ذاكرته... كولومبيا.. انديفر.. ديسكفري... أسماء علقت بذهنه وصور هؤلاء الذين يقبعون داخلها على ارتفاع

مئات الكيلومترات فوق سطح الأرض يشاهدونها من على كرة سباحة في الفضاء. إنه لا يدري تحديداً ماذا يفعلون وماذا يريدون؟ ويتساءل بينه وبين نفسه: هل هم أيضاً يستطيعون أن يقدفوا الأرض التي نعيش عليها بمثل تلك القذائف ذات الذبول البيضاء وبوجوهها من هناك

لتصيب أهدافها هنا؟ الضغط النفسي يزداد يوماً بعد يوم.. وعقل الفتى يتعرض لهزة عنيفة.. أخيراً شعر بالإرهاق فأطفأ نور حجرته واستلقى على فراشه الصغير مكتفياً بالضوء الخافت المتسلل عبر زجاج النافذة.

وشر في تلك اللحظات بحاجة قصوى إلى والده ليستمد منه العون والثقة والاطمئنان. لا بأس فغداً الجمعة وهو يوم الراحة من المدرسة التي أصبح في الأونة الأخيرة يشعر بملل من الذهاب إليها، ومن إلحاح مدرسيه وتأنيبهم له على تراجع تحصيله في الفترة الأخيرة، فاعتدل على فراشه محاولاً أن يخلد للنوم. لم يكن وقت النوم قد حان تلك الليلة، حيث عادة ما يسهر الناس ليلة الجمعة إلى ما بعد منتصف الليل؛ على

اعتبار أن الغد يوم إجازة، والعادة أن يستيقظوا من نومهم متأخرين ربما بعد العاشرة صباحاً ليملأوا وقت هذا اليوم بطقوس معتادة تبدأ مع صلاة الجمعة وتنتهي إلى الفراش باكراً، ربما أيضاً في العاشرة مساءً، فسوف يبدأ مطلع أسبوع العمل بشروق شمس يوم السبت.

حاول الفتى جاهداً أن يزيح الصور المأساوية التي شاهدها مرات عديدة على شاشة التلفاز والتي علقت بمخيلته، وأصبحت بتفاصيلها مرسومة أمام عينيه تطارده بدمويتها فلم يستطع، فأدار وجهه ناحية الملصقات على الحائط فلم ير سوى أشباح ليست لها ملامح.. وأخيراً

اخترق ببصره زجاج النافذة الشفاف ليرى نجومًا تتلألأ في السماء الصافية الخالية من السحب، أخذ يحدق فيها ببصره متنقلاً بينها ومحاولاً أن يعدها قدر استطاعته، ولمح ببصره صور تلك المركبات الفضائية والأطباق الطائرة المعلقة، وراوده الخيال في أن يصبح يوماً ما قائداً

لإحدى تلك المركبات، يجوب بها الفضاء سابحاً بين جنباته، لكنه تذكر فجأة تلك الأجسام المدمرة ذات الذبول البيضاء السابحة وهي تخرج من باطنها لتنتشر الدمار والقتل وأشلاء الأطفال، فنهض من فراشه وأشعل ضوء غرفته، وبهدهوء فتح بابها ليأتيه صوت التلفاز من غرفة

المجلس فتوجه إليها ليلقاه والده بابتسامة ثم يبادره القول: - ظننتك نمت فقد لاحظت أن نور غرفتك مطفأ.

فرد عليه قائلاً: - لم أتمكن من النوم وفضلت أن أرى فيلم السهرة لتلك الليلة. فقال له والده بنبرة حانية: - لم يبدأ بعد... ثم استطرد متسائلاً بنفس النبرة: - هل تناولت عشاءك؟ فأجاب الفتى وكأنه تذكر فجأة أنه جائع: - لا، إنني بالفعل أشعر بالجوع. وكانت الأم تجلس مع ابنتها

الكبرى على أريكة مزدوجة مجاورة تشاهد إعلاناً لمنتجات التجميل النسائية، فوجه الرجل حديثه إليها في شيء من الحدة: - أسرعى بإعداد العشاء لولدك، وسوف أكل معه، إنني أيضاً أشعر بشهيتي للطعام.

ثم وجه حديثه ثانية إلى ولده قائلاً وهو يبتسم ابتسامة واسعة: - تعال يا بني لنستمتع معاً بمشاهدة التليفزيون حتى تفرغ أمك من إعداد الطعام.

نهضت الأم لإعداد طعام العشاء وهي تتمم بكلمات تعبر عن احتجاجها على أسلوب التدليل الذي بدأ الأب يمارسه مع ولده، متهمه ولدها بالتقصير في دراسته.

وشر الفتى بأن والده قريب من نفسه أكثر من أي وقت مضى، كما أحس برغبة داخله للتحدث مع والده عن هموم نفسه، وفي تردد سأل والده عن تلك الحروب الدائرة والقتلى والأشلاء التي رآها ويرأها دائماً في برامج الأخبار التليفزيونية وكلما أدار القنوات.

فيدا والده سعيداً وأخذ يشرح له ناموس الحياة وطبيعة الصراع فيها بين البشر، والتي تركز في قوانينها على الصراع بين الخير والشر وبين الحق والباطل.

وانساب الفتى يسأل وهو في منتهى الانتباه: - لماذا يقتلون الأطفال ويهدمون المنازل؟ وأجابه والده قائلاً: - يا ولدي، إن النفس والعين التي يرى بها الظالم خصمه تجعله يتجرد من كل الأحاسيس الإنسانية ونواميس الأخلاق والشرائع، ولذلك تراه لا يفرق بين طفل أو امرأة أو شيخ، إنه فقط يقتل ويبيد لمجرد تحقيق مآربه الظالمة وفرض غاياته دونما التفات إلى آلام الآخرين أو لمآسيهم.

ثم استطرد الوالد قائلاً في تعجب: - يا ولدي ما زلت صغيراً لتدرك ما يحدث في هذا العالم، ثم استدرك في حنو وهو يربت على رأسه: - أريد أن أراك يوماً ما عظيم الشأن بعلمك وأخلاقك وتفوقك.

في تلك اللحظة دخلت الأم تدعوهم لتناول طعام العشاء، وعلى طاولة الطعام اكتمل الحديث عن برنامج إجازة الصيف، ولمح الوالد وهو ينظر نحو ولده قائلاً: - ستقضون إجازة الصيف هذا العام في مكان ساحر في أوربا، وستكون مفاجأة هائلة تسعدكم جميعاً. فقالت الأم باسمه: أخيراً أفصحت عن نواياك الحسنة.

ثم استطردت: - لا تنس أننا لم نقض الصيف خارج البلاد منذ عامين مضياً. صفقت البنت الكبرى بيديها مهللة واتسعت ابتسامة الفتى. وبادرهم الوالد قائلاً: - على شرط أن تتجسروا بتفوق هذا العام في الدراسة.

وضحك الجميع في سعادة. توالى الأيام رتيبة كعادتها لا يعكر صفوها إلا تلك الأحداث المأساوية التي تتوالى مشاهدتها المؤلمة على شاشات التلفاز ووسائل الإعلام المختلفة. وتحسنت حالة الفتى نوعاً ما، فقد اطمأن واستأنس بروح والده وحنوه التي أذابت بأبوتها ثلجاً يغلف عادة العلاقات بين الآباء وأبنائهم وحاجزاً نفسياً وهمياً يمثل حداً يصعب تجاوزه في مثل تلك العلاقات الإنسانية.

ربما كان ذلك ضمن تراث وثقافة نشأت عليها شعوب المشرق التي هذبته عقائد السماء وشرائعه والتي حافظت دوماً على روح الاحترام والتقدير في الأبناء تجاه آبائهم والذي ظل يمثل الرابط الأساسي للأسرة في تلك المجتمعات.

وبالتأكيد فإن الروابط الأسرية المتينة - التي تميز المجتمعات العربية والمسلمة على وجه الخصوص ومجتمعات المشرق عامة - يعود السبب الأساسي فيها إلى تلك العناصر الروحية والثقافية والتاريخية التي تحكمت في السلوك الإنساني وضبطته في تلك المجتمعات.

وبكم المعاناة التي عانتها نفس الفتى وروحه بسبب المشاهد المأساوية التي صدمته وتسببت في خدش براءة نفسه وطهارة روحه أصبح الفتى أكثر نضجاً وأشد قابلية لتلقي مثل تلك الأحداث التي عبرت أصدق تعبير عن الحالة الحضارية، كما يسمونها والتي شهدها العالم ويشهدها بشكل متسارع، والتي يظهر منها أسوأ جوانبها المتمثلة في قدرتها التدميرية الهائلة التي رآها بأعينه في شكل طائرات وقذائف مبرمجة إلكترونيا تنطلق منها، تماماً كألغاب السحرية الموجودة على طاولته، ثم تأتي النتائج في صورة أشلاء بشرية ممزقة ومشوهة ودمار هائل يودي بكل مكتسبات الإنسان الذي جاهد سنوات عمره الطويلة حتى يبينها ويعمرها، وكل ذلك يحدث في لحظة لا تكاد فيها رموش العين تلتقي.

وبوصول الفتى إلى تلك الدرجة البسيطة من القدرة على تلقي واستيعاب الصدمة بدأ ذهن الفتى يحاول تجاوز مرحلة القدرة على التلقي والاستيعاب، ومن ثم الانطلاق إلى حالة المجابهة وإيجاد الحلول المنطقية.

وفي الواقع وكأمر طبيعي كان العجز يمثل الحاجز للوصول لتلك النقطة.. نقطة المجابهة والحلول، مما سمح بتحريك العقل في اتجاهات أخرى لاختراق هذا الحاجز والحصار المخيف الذي تفرضه قوانين الصراع الإنساني على الأرض.

ولم يكن أمامه سوى سبيلين لاختراق هذا الطوق الحديدي الغاشم وهما: - إما الانكفاء داخل نفسه واعتزال هذا المجتمع روحياً ونفسياً، بمعنى العيش داخل النفس والانطواء، وهذا يمثل حلاً سهلاً، لكنه في نهاية الأمر - أي الفتى - سوف يغوص في مستنقع الجنون ولن يقبله مجتمعه مهما كانت الحجة عضواً صالحاً، ولن تشفع له دوافعه وإن بدت نبيلة، حتى وإن عاد فسيعود محكوماً عليه مسبقاً بالجنون، وفي ذلك خروج أبدي مدمر من الدائرة الاجتماعية والإنسانية. - وإما أن ينتمي لعالم آخر ومجتمع مغاير للمجتمع الإنساني الذي يحكمه الظلم ويتحدث بلغة همجية متوحشة، مفرداتها الظلم والقتل والإبادة والدمار.. لغة لا تعرف كيف تتحدث بلغة الإنسان المفعم بالقيم والمبادئ والمثل العليا والمفعم بالأمل والنظرة المتفائلة تجاه المستقبل.

لغة تعرف فقط كيف تستبيح لنفسها اغتصاب حقوق الآخرين وقتلهم كالفران دونما رحمة أو هودة. وكان القدر رحيماً بالفتى فاتجهت أشرعه صوب الخيار الأخير، وكان عليه بعقله الصغير ومداركة الغضة التي بدأت تخترق ما حولها لتجد متسعاً يتيح لها النفاذ باتجاه الهدف المنشود أن يبحث حوله عن عالم آخر.

كانت أمواج كثيرة في مياه الخليج قد تتابعت وتلاطمت حين انقطعت أيام شهري مايو ويونيو بأحداثها المأساوية واقترب موعد السفر لقضاء الصيف في أوربا، ولم يكن ثمة شيء جيد وطيب سوي نتاج الاختبارات المدرسية لنهاية العام للفتى وشقيقته، فرغم انخفاض درجات الفتى النهائية إلا أنه تجاوز صفه الخامس استعداداً للانتقال إلى الصف السادس، ولم يكن ثمة ما يشغله خلال فترة ما بعد الدراسة وقبل السفر سوى همومه النفسية الخاصة ومشاهدة التلفاز وبعض فترات اللهو القصيرة مع أقرانه من أبناء الجيران.

وأمام التلفاز كان الفتى يجلس فترات طويلة يشاهد برامج القنوات المختلفة وشده برامج الفضاء والفلك بصفة خاصة، حيث كان يغيب مع مشاهد النجوم ومركبات الفضاء وهي تسبح بينها، وكان يشعر براحة غريبة مع مشاهدتها وكأنه وجد المكان الذي ينتمي إليه.

كان شعوراً قويا يراوده بأن يكون هناك بعيداً عن هذا العذاب النفسي الذي يلاعب أعصابه ويسبب له الألم والمعاناة، كان يحلم وكان أيضاً يذنب مشاعر الألم داخله في أقداح أحلامه متشبهاً بأمل خرافي في الهروب من الواقع ومرارته.

ربما كانت حالة ميلاد جديد لذلك الفتى... ميلاد نفسي وروحي وفكري... وربما كانت أيضاً حالة هذيان مكتوم داخله بسبب الاصطدام العنيف الذي حدث بين ما شاهدته عيناه وسمعه أذناه من أحداث وبين قلب صغير وروح بريئة ومشاعر طاهرة داخله.

حان وقت السفر واستعدت الأسرة بقيادة الأب للسفر غداً الأول من يوليو إلى بريطانيا.

وفي الحادية عشرة مساءً أفلعت بهم الطائرة لتقضي سبع ساعات في الجو في طريقها إلى لندن، كان أفراد الأسرة خلالها سعداء ببدأ إجازة سعيدة في طقس معتدل يغيرون فيها رتم الحياة التقليدية التي يعيشونها طوال العام، وفي صباح لندني رائع هبطت الطائرة في مطار هيثرو، وخلال ما يقارب خمسين دقيقة كان الجميع يستقلون التاكسي من أمام المطار في طريقهم إلى البناية الحمراء التي ينزلون بها عادة خلال زيارتهم المعتادة لمدينة لندن والكائنة أمام المستشفى الشهير بشارع كرومويل، وخلال ما يقارب ساعة من مغادرتهم المطار كان أفراد الأسرة داخل مسكنهم الذي حجزه الأب سلفاً قبل حضورهم.

انهمكت الأم وابتهاها في إفراغ الحقائب، بينما توجه الأب مع ولده إلى المتجر القريب لابتياح بعض الأشياء الضرورية، ورغم الشعور بالإرهاق جراء ذلك السفر الطويل إلا أن الطقس كان منعشاً وبارداً رغم سطوع الشمس في تلك اللحظات، وسأل الفتى والده وهما يسيران في الطريق:

- هل سنظل في لندن طوال فترة الإجازة؟ فأجابه الوالد وهو يبتسم:

- بالطبع لا، ولكن لعدة أيام فقط.... ثم استطرد قائلاً: ألم أعدكم بمفاجأة هذا العام؟ فأجاب الفتى:

- نعم، ثم تساءل وهو يبتسم:

- هل ممكن أن أعرف تلك المفاجأة؟ فأجابه الوالد وهو ينظر إليه بطرف عينيته:

- إذا قلت لك فلن تصبح مفاجأة، خمن بينك وبين نفسك.

فقال الفتى وهو ينظر إلى والده:

- أستطيع أن أخمن أننا سوف نذهب إلى منطقة خارج لندن.

فجذب أبوه قائلاً:

- خمن كيف شئت ودع كل شيء لوقته.

كانا على مدخل المتجر الكبير، حيث دلفا للشراء وابتياح الضروريات المطلوبة وقفلا عاندين يحملان معاً حاجيات الأسرة، وما أن دخلا المسكن حتى قال الرجل لزوجته:

- أعتقد أنني في حاجة إلى حمام وفراش لأستريح وأنتم أيضاً على ما أظن.. فوافقته زوجته وأوعزا للأبناء ليحصلوا على قسط من الراحة ثم دخل كل إلى غرفته بعد ليلة لعب الإجهاد فيها دوره.

استيقظت الأم وزوجها في حوالى الثالثة بعد الظهر بعد قسط كاف من الراحة، وأيقظت الأم بدورها الأولاد الذين اغتسلوا وتناولوا معاً طعام الغداء الذي أعدته لهم ولم تكد الساعة تصل إلى الرابعة والنصف حتى كان الجميع قد تناولوا طعامهم استعداداً لجولة سريعة في الأماكن التي يحبونها، وبالفعل توجهوا سيراً على الأقدام إلى شارع كينسينجتون حيث ابتاعت الأم وبناتها بعض مستلزمات التجميل النسائية من محلات بوتس، ورغم أن الرجل حثها على تأجيل الشراء حتى العودة من الحديقة التي كانوا متوجهين إليها، إلا أنها - وكعادة النساء - خشيت أنهم ربما يتأخروا هناك والمحلات هنا تغلق أبوابها عادة في السادسة مساءً.

سكت الرجل اقتناعاً برأيها ثم واصلوا مسيرهم حتى دخلوا حديقة الهايدبارك الشهيرة وبدت الفرحة على وجوه الأولاد وهم يسترجعون ذكرياتهم الجميلة حين كانوا يلعبون ويمرحون بين أشجارها الوارفة وبساطها العشبي الأخضر الرائع.

التقت السيدة هناك بصديقات لها سبقنها إلى لندن مع أسرهم وقرب البحيرة استمتع الجميع بوقت رائع، وكانت المفاجأة أن معظم صديقات المرأة كن قد استأجرن مساكنهن في نفس البناية التي يقطنونها.

وشعر الرجل بأن عليه أن يترك زوجته وطفليته مع هذا الجمع من الصديقات وأولادهن، فقد كان وجوده سوف يمثل حرجاً لصديقات زوجته، فضل أن يترك زوجته وطفليته مطمئناً على أن تعود برفقتهم في حال تأخره عن العودة، وانطلق مع ولده الذي أصر على صحبته متوجهاً إلى كوينزواي، ذلك الشارع الذي لا يهدأ ضجيج، لرؤية بعض أصدقائه الذين سبقوه في السفر إلى لندن وللجلوس على مقهاه المفضل وابتياح بعض الصحف والكتب والمجلات العربية من المكتبات الموجودة بذلك الشارع.

وقبل أن ينحرف يساراً إلى شارع كوينزواي التقى ببعض المعارف والأصدقاء على المقهى المواجه لسور حديقة الهايدبارك فصافحهم وجلس قليلاً معهم ثم توجه مع ولده إلى داخل الشارع، ومن ثم إلى المكتبة الواقعة على الجهة اليسرى قبل ذلك المبني الشهير ذي القبة، والذي يسمى الوايت ليز.

وفي المكتبة أخذ يجوس مع ولده بين رفوفها ليختار كتباً معينة وبعض الصحف، وخلال انتقائه لمختاراته التقط الفتى كتاباً عن الأطباق الطائرة مترجماً إلى العربية، ثم دفع الحساب وانصرف مع والده عاندين إلى المقهى هناك على رأس الشارع المواجه لسور الحديقة ليشترك أصدقاءه هناك جلستهم الهادئة أمام المقهى يدخلون الشيشة ويتناولون الشاي بالنعناع.

أمضت الأسرة أسبوعاً في لندن قضوه في التسوق والتجول والاستمتاع بالحدائق، ولم ينس الرجل أن يصطحب أسرته إلى متحف التاريخ الطبيعي القريب من تكناهم خلال ذلك الأسبوع، إلا أن الفتى كان مولعاً بالكتاب الذي أخذه من المكتبة حول الأطباق الطائرة والأحداث الغريبة التي وقعت أحداثها ويرويها الكتاب.

وسيطرت تلك الأحداث على مخيلته تماماً وراودته أحلامه أنه ربما يتمكن يوماً ما من الانفكاك من هذا العالم المؤلم والمزعج بظلمه وحقده وطغيانه ليزور تلك الكواكب والنجوم التي تأتي منها تلك المخلوقات بالأطباق الطائرة التي لم تحاول إطلاقاً إلحاق الأذى بأبناء الأرض الذين صادفوها رغم قدرتها المحتملة على ذلك.

ويتعجب الفتى من تلك المخلوقات وطبيعتها وحفاظها على حياة الناس وعدم إلحاق الأذى بمن يقابلها من أبناء البشر ويسأل نفسه:
- هل حقا تلك المخلوقات لا تؤذي؟! ثم يجيب على نفسه:

- نعم، إن كل الروايات التي صدرت عن كل من قابلهم من الناس والتي وردت بهذا الكتاب تؤكد ذلك، إضافة إلى ما رددوه عن المقدرة الهائلة التي يملكونها للسيطرة على أبناء الأرض وكيف يعاملونهم بلطف دونما أدنى ضرر أو أذى... ويعاود حوارهم قائلاً:

- آه... ربما إنهم لا يعرفون الأذى ولم يسمعوا عن الظلم والحق والمقدرة الفائقة على القتل والتدمير التي تميز أبناء هذا العالم.

كان الحوار متصلًا داخله وكلما قرأ إحدى حوادث الأطباق الطائرة تأجج الحوار داخله واستعر وسيطر على كيانه الفكري والنفسي....

لقد كان ذلك الكتاب بمثابة المفجر لتلك الحوارات وإثارة كوامن الفتى النفسية وإعادته إلى حالته الأولى...

لقد كان يحتاج إلى من يعاونه على التفكير وشعر بالراحة والطمأنينة حينما تحدث مع والده وشعر بتجاوبه معه..

لكنه في الحقيقة لم يتمكن من اجتياز العائق الرئيسي وهو نسيان الأمر كله نهائياً... لا... لم يحدث...

ظل الأمر كامناً داخل نفسه وشعر بالاطمئنان مع اهتمام والده به، إلا أنه أبدأً لم يتجاوز الحدث...

وكيف لروح بريئة طاهرة وعقل صغير يسجل ما يراه على ذاكرته الطازجة المستعدة تماماً للتسجيل والحفظ أن تنسى صور القتل والدمار

والأشلاء وصور الرعب المرترمة على وجوه الأطفال والنساء نتاج الحقد والكراهية والظلم.

كان يسير ويجلس وينام ويلعب مع أخواته ويتناول طعامه والأحداث كلها ترافق فكره.

ثم هذا الكتاب الذي ابتاعه وكأنه وجد متنفساً له بين سطوره مع تلك المخلوقات اللطيفة في تعاملها والجسارة في قدرتها، والتي لم يتمكن أهل

الأرض من الإمساك بهم أو حتى الوصول إلى حقائق وأدلة ملموسة عنهم، ورغم ما يدعيه أبناء الأرض من قدرة لم تزد في مجملها عن

كونها مجرد ألعاب أطفال لا قيمة لها مقارنة بالأطباق الطائرة.

استحوذت قصص الأطباق الطائرة ووصف المخلوقات التي تقودها وتأتي بها إلى الأرض على عقل الفتى وفكره تماماً، ووجد بحسه

الطفولي أنها المخرج له من أزيمته وضيقه وألمه النفسي المتواصل....

لكنه في نهاية الأمر كان يعيش حياته بشكل عادي مع أسرته، إلى أن قرر والده أن يصطحبهم إلى المكان المفاجأة، والذي سوف يقضون به

أياماً رائعة بعيداً عن مدينة لندن..

فأسبوع واحد يكفي، ثم أسبوع آخر بعد العودة من المنتجع الذي سوف يذهبون إليه....

أمضت الأسرة يومها الأخير في لندن بشكل طيب وكان الطقس معتدلاً إلا أنه كان مائلاً للحرارة رغم أن درجة الحرارة لم تكن قد تجاوزت

الخامسة والعشرين نهاراً، وهذا يعني بلغة أوروبا طقساً حاراً.

وفي نهايته عاد الجميع إلى المسكن بعد أن أمضوا جولة تسوقية جيدة في المحلات الشهيرة بشارعي كنزسنتن وأوكسفورد، خاصة وأن

التنزيلات كانت على أشدها بالنسبة للأسعار ولم يطلب الفتى شراء شيء خاص به سوي قبعة رياضية لتقيه من الشمس والمطر معاً وشورت

وحذاء رياضيين أيضاً.

وطلب منهم الوالد أن يجمع كل منهم حاجياته الخاصة من ملابس وأدوات استعداداً لقضاء أيام ممتعة، ثم تركوا باقي حقائبهم عند جيرانهم

من الأصدقاء، وفي الصباح استقل الجميع سيارة تاكسي إلى محطة أيوستون، حيث استقلوا القطار المتجه شمالاً نحو جلاسجو. وعندما يقارب

أكثر من أربع ساعات داخل القطار استمتع الجميع خلالها بالمناظر الطبيعية الخلابة للريف الإنجليزي الشهير غادروا القطار في مدينة

أوكسينهولم ليستقلوا قطاراً فرعياً آخر إلى المنتجع الشهير في منطقة ليك ديستركت.

وفي قرية وندرمير الصغيرة القابعة بين التلال الخضراء والبحيرات الساحرة توقف القطار بعد عشرين دقيقة فقط ليغادره إلى منطقة من

أجمل مناطق الدنيا سحراً في طبيعتها الخلابة وبحيراتها الرائعة، وفي أحد الأوتيلات الجميلة في قرية بونس الملاصقة لشاطئ البحيرة -

والمبني على شكل كوخ - استقبلهم صاحبه الأيرلندي بيتر وزوجته آن بحرارة. وخلال دقائق كان الجميع يضعون حقائبهم داخل غرفتين

كبيرتين متلاصقتين ومتصلتين بباب بينهما بالطابق العلوي مجهزتين بجميع إكاثيات الحياة العصرية، وبداخل كل غرفة حمام وكان الفرش

رائعاً ورقياً كما كان الديكور الداخلي مريحاً ويتمشى مع روعة الطبيعة المحيطة، وكان الكوخ يقع على قمة تلة تشرف على البحيرة

والتلال الخضراء المغطاة بالغابات الكثيفة، وكانت ألوان الزهور والنباتات تغطي المنطقة كلها كما كانت نوافذ الغرف تطل على المنظر

الساحر للبحيرة التي كانت تقع بين التلال كثيفة الخضرة.

كما كان الطقس رائعاً ومنعشاً فلم تكن درجة الحرارة في هذه المنطقة تزيد على تسع عشرة درجة مئوية خلال شهور الصيف.

وقف الرجل وزوجته وأولادهما يشاهدون هذا المنظر البانورامي الساحر لهذا الفردوس الأرضي في سعادة بالغة وقالت الزوجة لزوجها

وهي تبتسم:

- يا لها من مفاجأة، إنها منطقة رائعة لم أكن لأراها سوي في الخيال. فرد الزوج قائلاً:

- تبارك الله أحسن الخالقين.. ثم استطردها متسائلاً: - إذا كان الجمال والسحر هنا بهذا القدر فكيف تكون الجنة والفردوس؟ إنني أعتقد أن الله

سبحانه وتعالى خلق للبشر هذا الجمال الساحر في الأرض ليتفكروا في عظمته ويتخيلوا كيف يكون الأمر في جنة الخالق العظيم.

ويتساءل: كيف ذلك الفردوس الذي أعده الله سبحانه وتعالى للمتقين الأبرار؟ وساد الصمت لبرهة، بينما كان الفتى مشدوهاً بجمال المنظر الرائع وكلمات والده تصب في أذنه فيتأملها بعقله صامتاً..

يا له من رجل رائع، هذا الأب الحنون... قالها الفتى في نفسه وفاضت مشاعره حبا لأبيه وأمه وأخواته، وفجأة قطع الأب الصمت الذي بان عليهم وهم يملئون عيونهم بجمال الطبيعة وصدورهم بالهواء النقي قائلاً:

- هه... الآن هل تستريحون قليلاً ثم نخرج في جولة سريعة أم تريدون الخروج حالاً؟ الساعة الآن قاربت الرابعة والنصف بعد الظهر ولدينا وقت كافٍ لنتجول قليلاً ثم نعود للراحة. فقال الفتى وأخواته: - دعنا نغتسل فقط ونخرج حالاً.

ثم أردفت الصغرى قائلة: إنني أشعر بالجوع... فأجابهم:

- هيا إذن اغتسلوا ودعونا نستطلع تلك المنطقة الرائعة. هبط الجميع الدرج وهم يتأملون مرة أخرى هذا النزل الراقي وديكوراته وتصميماته الإنجليزية، وأسفل الدرج كان صاحب المنزل وزوجته في استقبالهما، حيث اصطحبوا الأسرة في جولة للتعرف على المنزل وإمكانياته.

كان الطابق الأرضي فيه يضم المدخل والاستقبال ذا المقاعد المريحة وكان المنظر العام يدل على الذوق والأناقة، وعلى اليمين كانت قاعة القهوة والاسترخاء، وبعدها تقع غرفة الطعام الفسيحة المتسعة ذات الأبواب الخلفية التي تطل على الحديقة الجانبية ومرآب السيارات والمزدانة بستائر وديكورات من تصميم لورا أشلي الشهيرة ولوحات فنية على الحوائط معلقة بشكل جميل داخل إطارات تشكل جزءاً من ديكور الجدران، وأصر الأيرلندي على أن يلقوا نظرة على المطبخ الذي كان يشع بالنظافة والحدائث.

أبدي الرجل وزوجته إعجابهما بالمكان، بينما كان الأيرلندي سعيداً وفخوراً بإطرائهم للنزل، ثم قال مخاطباً الرجل وزوجته:

- لا تنسوا أن موعد العشاء هنا يبدأ من الساعة وحتى التاسعة والنصف، كما أن الفطور يبدأ من الساعة وحتى العاشرة يومياً. فسأله الرجل عن أنواع الطعام ملحماً أن هناك بعض الأصناف التي يتجنبونها في طعامهم. فأجاب الأيرلندي:

- أفضل أن نتناول عشاءك هنا أولاً لترى طعامنا واطلبوا ما شئتم فأنتم على الرحب والسعة... ثم استترد قائلاً:

- إن نزلنا صغير كما ترون، لكننا نعتني بعملائنا كما لو كنا فندقاً عملاقاً ذا خمسة نجوم، ونريد أن تغادروا وأنتم تحملون ذكريات جميلة عن هذا المكان لتعودوا مرة أخرى إلينا.

فرد الرجل قائلاً:

- يبدو ذلك يا سيد بيتر وسوف نخرج الآن لنلقي نظرة على البحيرة ونتجول قليلاً ثم نعود لنتناول طعام العشاء.

- فقال الأيرلندي: - على الرحب والسعة وتمنياتي بقضاء وقت طيب معنا.

انطلق الجميع هابطين التلة الواقع فوقها النزل إلى الشارع العام المنحدر أيضاً، حيث المنطقة عبارة عن تلال ومرتفعات تنتظم البناءات والشوارع فوقها وعلى سفوحها وفقاً لطبوغرافية المنطقة التي تكسوها الخضرة وتزينها البحيرات، مما يمنحها سرا وجمالاً خرافيين، ناهيك عن الطقس الرائع المائل للبرودة الخفيفة والمعشاة التي تميز هذا المنتجع طوال فترة الصيف.

والذي يفد إليه المصطافون من كل بقاع أوربا ليقضوا به أياماً يستمتعون خلالها بجمال الطبيعة وهدوئها ويودعون أيضاً القلق والتوتر الذي يصاحب رتم الحياة في ظل حضارة العصر التي أعطت الإنسان وسائل عصرية متقدمة لإدارة حياته وصراعاته برتم سريع وفعال، لكنها للأسف أخذت منه مقابل ذلك أضعاف ما أعطت ومنحت... يا للعجب... إنه شيء محير للعقل حين يتفكر الإنسان ويتحاور داخل عقله حول تلك الحضارة وجوهرها وحقيقة معطياتها.. لقد أعطته أيضاً - بجانب ما يفيد من وسائل الحياة التي تخدمه وتيسر له أموره - وسائل قتل حديثة وفتاكة...

لقد أعطته ما يستطيع به أن يمسح به شعوباً وأمماً من فوق خارطة العالم، وأعطته ما يمكنه من فرض سلطان القهر والظلم والبطش على الآخرين من البشر، وانتزعت منه أثمان ما يمتلك من حس إنساني وعواطف جياشة تمثل المنبع الحقيقي للجوهر الإنساني والمشاعر الراقية...

ليس ذلك فقط، لقد انتزعت منه حتى صحته وحيويته، وانعكس كل ذلك بالتالي على المجتمعات الإنسانية نفسها؛ حيث انهارت قيم كانت تمثل صلب الحياة وسر استقامتها..

وللحقيقة فإن هذه الحضارة التي نراها بعين الإعجاب والتعجب هي في جوهرها حضارة خاوية من داخلها، عمياء في بصيرتها الإنسانية.. لم تمنح المساحات الموجودة داخل الإنسان كما منحت المساحات خارجه..

أعطته من الخارج... خارج نفسه وجسده وجعلته يتطلع لما حوله بعينه لا بروحه وإنسانيته بجانب عينه..

كل شيء يتم خارجه... سيارات حديثة... طائرات نفائثة وصاروخية.. مركبات فضاء.. طب... اتصالات هائلة القدرة.. وسائل تكنولوجية لضخ المعلومات.. إعلام فعال ومغرض، يقول ما يريد البعض قوله ويصيف حياة الناس حسب أهواء بعض الناس.. ثم أسحلة هائلة التدمير والهلاك..

ويا للعجب أيضاً في ظل هذا التقدم الهائل منحت أيضاً أمراضاً جعلته يقف أمامها عاجزاً متهاكاً..

فيروس حقير لا يكاد يراه الإنسان حتى بالمجهر العادي جعل هذه الحضارة وهذا التقدم الذي أحرزه الإنسان يقف عاجزاً مسكيناً ومشلولاً وضعيفاً يثير الشفقة أمامه..

حكمة بالغة وأمر معجز..

إنه يحصد الإنسان في برود وبلادة، كأن لسان الحكمة يقول للحضارة وصاحبها: أنت مخلوق ضعيف وأضعف مما تتصور مهما بلغت من شأن فأنت جاهل بعلمك، ضعيف بقوتك أمام القوة العظيمة والقدرة الإلهية التي لا تعلوها قدرة..

أفق أيها الظلوم الجهول ولا تتجاوز حدودك..

لكن يا للأسف لا أحد يسمع، وإن سمع فلا يفهم، وإن فهم فعلى عقله وعينه غشاوة تمنعه من الإدراك..

ومن المثير للعجب والدهشة رغم وجود آلاف المفكرين والعلماء والباحثين الذين يسخرون عقولهم وعلومهم لمناقشة وبحث ظواهر العلم والكون أنهم لم يسألوا أنفسهم سؤالاً مهماً وجوهرياً، ربما لو سألوهم لأنفسهم لتجمدوا من الخوف وعقدت الدهشة ألسنتهم، ولتبنينا إلى أي هاوية هم ذاهبون، هذا السؤال هو: وماذا بعد؟ كلمتان فقط من ثمانية أحرف تكفي لأن يمحس الإنسان عقله وهو يري النهاية الطبيعية ببصيرته وعقله وليس بعينه ليفاجأ بنهاية مأساوية ومصير مروع يترصد بالبشرية الدوائر هناك خلف حافات الأفق المنظور... وصل الجميع خلال لحظات إلى شاطئ البحيرة وأمامهم امتدت مياهها حتى الشاطئ الآخر، وعلى صفحة المياه انتشرت الزوارق مختلفة الأنواع وفوق ظهورها المنتزهين الذين يستمتعون بوقتهم وأيام عطلتهم، ثم هذه السفن الكبيرة التي تنتشر المقاعد فوق سطحها والتي تجوب البحيرة الممتدة بين تلك التلال الخضراء المرتفعة حتى تصل إلى قرية أمبلسايد في جولة تستغرق خمساً وأربعين دقيقة، كما يتضح من الإعلانات المعلقة فوق أكشاك التذاكر.

وكان هناك مطعم صغير للوجبات السريعة أخذت منه الصغيرة لفاقة «هوت دوج» وداعبها والدها بقوله إنك تأكلين الآن كلباً ساخناً وضحك الجميع ثم ساروا بمحاذاة البحيرة يساراً حتى دخلوا الغابة الجميلة الهادئة التي تمتد بلا نهاية.

لقد كانت المنطقة كلها في مجملها غابة ضخمة بلا نهاية يلفها الهدوء الذي لا يكسره إلا صوت الطيور وحفيف الأوراق وبعض السناجيب التي أخذت تقفز بين الأشجار...

وفي هذا الجو الطبيعي الساحر كان الفتى يعيش بوجدانه الحلم الحقيقي الذي عشعش في مخيلته وتنامي داخل عقله حتى أصبح هاجسه، وأخذ يستعيد شريط الأحداث الحقيقية للأطباق الطائرة التي كانت تهبط بين الأشجار وعلى جوانب الطرق في هوبكنزويل بأمريكا ونيوهامبشير وغابات أريزونا وباسكاجولا في ولاية ميسيسيبي.

ودار في عقله سؤال: - ما المانع أن تحدث هنا أيضاً في كومبرلاندا؟ وأفاق على صوت والده وهو يقول:

- انظروا أمامكم ببدا أنا وصلنا إلى منطقة أخرى من الشاطئ. وهناك من فتحة بين الأشجار كانت مياه البحيرة الهادئة تتراءى للعين مع المنظر العام للأشجار والنور المنعكس على المياه كأنها فردوس حقيقي.

وصل الجميع هناك واستراحوا قليلاً بين الأشجار ثم ارتدوا عائدين من نفس الطريق، بينما كانت بعض الأسر القليلة وبعض الأفراد الذين ترافقهم كلابهم يسبرون في نفس الدرب عائدين إلى القرية.

ولم تنقض الساعة ونصف الساعة منذ مغادرتهم النزل حتى عادوا إليه سعداء بهذه الجولة الرائعة.

استراحوا في غرفهم وفي الثامنة كان الجميع يتوجهون إلى قاعة الطعام حيث استقبلتهم السيدة آن زوجة صاحب النزل ومساعدتها فيونا، تلك الفتاة الأسكتلندية ذات العيون ذات الالتهام، فتناولوا عشاءهم وسعد الجميع بالطعام ثم انتقلوا إلى ردهة الاستقبال، حيث جلسوا على المقاعد المريحة الموجودة بها وكان قد سبقهم بعض النزلاء الذين أومئوا للأسرة بالتحية المصحوبة بابتسامة وبادلهم الرجل وزوجته التحية ثم تحدثوا قليلاً معاً عن المنطقة وروعها.

وكان أولئك النزلاء شاب وبرفته سيدة ورجل تجاوز الخمسين وزوجته وانضم إليهم فيما بعد ثلاثة آخرين من النزلاء، ورجل وامرأتان، وفضل الفتى وأخواته اللعب خارج النزل في الحديقة، بينما كان الوالد يتناول قهوته والآخرين يتناولون مشروباتهم الروحية المفضلة.

وكان بيتر يقف بنفسه على البار ليخدم نزلاءه، ثم انضم إليهم في جلستهم بعد انتهائهم من تقديم المشروبات ونهضت زوجة الرجل متوجهة إلى الخارج للاطمئنان على أولادها الذين كانوا يلهون سعداء في المروج المنحدرة حول النزل وبين النباتات والزهور.

ووقفت مشدوهة وهي تشاهد منظر الغروب المهييب في هذا المكان الساحر.

وبدأت التلال الخضراء المواجهة حول البحيرة تتحول إلى اللون الداكن، فيما كانت أوتار النور تندفع من خلفها مشكلة سيمفونية جمال إلهي عظيم.

فأسرعت تنادي زوجها ليري المنظر العام للغروب واستأذن من الآخرين ليري ما أبهج عينيه، وفي نفس الوقت ساوره شعوره داخلي بالحزن وهو يري موجات الظلام تتوالى مكتسحة النور في مغزى هائل لنظام الكون الذي دبره الخالق سبحانه وتعالى. وهناك على جوانب المدخل كانت المقاعد البيضاء التي تتحلق طاولة تنتصب في وسطها مظلة ملونة جلس الرجل وزوجته وحولهما أبناهما يلعبون في سعادة غامرة، وسألته زوجته وهي تبسم:

- كيف عرفت بهذا المكان الساحر؟ فضحك وهو ينظر إليها قائلاً:

- ربما تتعجبين لو عرفت الحقيقة... ثم استطرده وهو يقول:

- منذ عامين ونحن هنا وفي أثناء انتقالنا بالتاكسي إحدى المرات دار حوار مع سائق التاكسي حول الأماكن الجميلة في بريطانيا والذي يستطيع الإنسان أن يزورها بخلاف لندن التي زرتها كثيراً فقال لي سائق التاكسي: إن هناك منطقة رائعة شمالاً وأعطاني فكرة طيبة عنها ونصحتني بالذهاب إلى مكاتب الاستعلامات السياحية للنزود بمعلومات أكثر عنها، وبالفعل كان السائق صادقاً فقررت زيارتها معكم خلال المرات القادمة وقد كان.

فقال الزوجة: - معك كل الحق، إنها بالفعل منطقة رائعة.

وبعد فترة صمت قال الرجل: - غداً بمشيئة الله سوف نستمتع برحلة بحرية في البحيرة نزور خلالها مناطق جديدة، ثم نظر حوله باحثاً عن الأولاد فوجد الفتاتين ولم يجد الفتى.

فأخذ يجيل بصره يمنة ويسرة باحثاً ولما لم يجده سأل أخواته فأشارت الصغرى بيدها إلى أعلى، يعني أنه صعد إلى الغرفة فنهضت الأم فوراً لتطمئن وصعدت لتجد ولدها يشاهد التلفاز وهو مستلقٍ على وجهه فوق الفراش فسألته إن كان يريد شيئاً فأجابها بالنفي فقالت له: - نحن نجلس أمام النزل في الجو الجميل انضم إلينا إن أردت فأوماً لها بيده وعينه على التلفاز فانصرفت مغلقة الباب خلفها عائدة إلى زوجها وبناتها. كان الطقس قد مال للبرودة أكثر وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة بعد منتصف الليل حين نهض الرجل وهو يتمطى والسكينة والهدوء يلفان المكان، ثم قال لزوجته هيا نصعد لقد برد الطقس، وكانت البناتان تجلسان في تلك اللحظة على السور الحجري غير المرتفع لحديقة النزل فنادت زوجته على بناتها وصعد الجميع إلى الغرف بعد أن ألقوا التحية على بعض النزلاء ومعهم صاحب النزل الذين كانوا يجلسون في ردهة الاستقبال ونام الجميع نوماً هادئاً وهانئاً.

كانت الساعة قد تجاوزت الساعة والنصف صباحاً حين اغتسل الرجل وزوجته وأولادهما وهبطا الدرج متوجهين إلى قاعة الطعام بعد أن حمل كأمرته على كتفه، وكانت القاعة مزدحمة قليلاً ببعض الرواد ونظر الرجل والمرأة إلى بوفيه الإفطار، حيث استراحوا وسعدوا بمستوى الخدمة وتناول الجميع إفطارهم وانتقلوا إلى غرفة القهوة، حيث تناول الرجل وزوجته قهوة الصباح ثم ذكر الرجل أبناءه بأن عليهم الاستعداد لنزهة بحرية فوق ظهر السفينة التي رأوها بالأمس.

فصعد الأولاد لارتداء ملابس رياضية خفيفة ولم ينس الفتى إحضار قبعته وارتداء الشورت الرياضي، بينما ارتدت الفتاتان ملابس مناسبة ومريحة أيضاً.

وفي الطريق ابتاع الرجل ثلاث قبعات من النوع الرخيص له ولبناته من أحد المحلات لارتدائها وقت اللزوم وهو يثنى على الفتى لشراؤه المبكر لقبعته، وخلال لحظات كان الرجل قد دفع قيمة التذاكر له ولأفراد أسرته لجولة تستغرق ثلاث ساعات، وحسب النظام المعهود جلسوا في مقاعدهم على ظهر السفينة وخلال دقائق قليلة أعلن عن بدء الرحلة ومسارها.

ثم انطلقت السفينة وهي تطلق صافرتها التقليدية وظهر جمال الطبيعة وروعته بشكل صارخ وهم يرون لوحات خلابة لجمال الطبيعة والتداخل المبهر للتلال الخضراء المغطاة بالأشجار، ثم تلال أخرى تتخللها مروج خضراء متسعة وزاهية، وكان الجميع يتحدثون بعيونهم وهم يحاورون هذا الجمال وتلك الروعة التي أبدعها الخالق في هذا الجزء من العالم.

وكان الفتى سارحاً ببصره وهو في نشوة من جمال الطبيعة، وفي نفس الوقت يتخيل نفسه في هذه المنطقة وحيداً ليأتيه ذلك الطبق الذي هبط على الزوجين بيتي وبارني هيل في نيوهامبشير، أو على حراس الغابة في ولاية أريزونا حيث تعاملوا بلطف ومودة وسلام مع أولئك الناس وخاصة ترافيس والتون الذي بحثت عنه الشرطة في كل مكان ولم يجده إلا بعد خمسة أيام قضاها مع تلك المخلوقات..

ربما لم يكن والتون سعيداً برحلته تلك، ولكني سأكون سعيداً بكل تأكيد - قالها محاوراً نفسه - ولم يفق إلا على صوت والده يدعو ليلتقط لهم بعض الصور، وبالفعل التقط صوراً لوالده مع أمه وأخواته، ثم طلب بكل لطف من إحدى الشابات التي كانت جالسة معهم على ظهر السفينة أن تلتقط لهم جميعاً بعض الصور فقامت بالمهمة وهي تبتسم بمودة.

وفي محطات القرى الرئيسية حول البحيرة كانت السفينة تتوقف لينزل الركاب يتناولون القهوة لفترة قصيرة، وهكذا استمتع الجميع بنزهة بحرية رائعة استغرقت ثلاث ساعات، عاد الجميع بعدها إلى النزل واستقبلهم السيد بيتر عند المدخل مبتسماً وهو يخاطب الرجل: - طاب يومكم أتمنى أن تكونوا قضيتم وقتاً طيباً.

فرد الرجل:

- شكراً لك، بالفعل قضينا وقتاً ممتعاً خاصة الأولاد.

فعلق الأيرلندي قائلاً:

- بالمناسبة سوف أمنحك بطاقة عضوية لنادي باركلاندر، فربما تحب قضاء وقت ممتع في بركة السباحة أو ممارسة الرياضة والسونا.

فدهش الرجل قائلاً: صحيح أنني بالفعل سأكون سعيداً بذلك. فقال الأيرلندي: إذن امنحني دقيقة وستكون البطاقة بارزة.

وفعلاً خلال لحظات أتى الأيرلندي من خلف طاولة البار وهو يحمل بطاقة صغيرة في يده قدمها للرجل قائلاً:

يمكنك أن تذهب الآن إذا أردت وفي أي وقت خلال دوام النادي وذلك طوال إقامتك معنا. فشكره الرجل ثم سأله عن الطريق إلى النادي

فأرشده الأيرلندي، وكان النادي بالفعل قريباً من النزل ربما لم تزد المسافة عن سبعمائة متر.

صعد أفراد الأسرة إلى غرفهم فاغتسلوا وتناولوا بعض الفاكهة من السلال الموجودة بالغرفة والتي تضع فيها عاملة الفندق الفاكهة كل صباح

للنزلاء في أثناء قيامها بعمليات النظافة اليومية للغرف، وجلسوا يشاهدون التلفزيون، وأخبر الرجل أبناءه بحصولهم على عضوية النادي

فصرخ الأولاد من الفرح وهم يطلبون الذهاب، فقال لهم: علينا أن نشترى أولاً ملابس سباحة لكم، وبعد فترة استراحة غادر الجميع النزل،

وفي الطريق إلى النادي اشترى الرجل له ولأبنائه ملابس خاصة بالسباحة كما كان قد أخذ من النزل بعض المناشف، وبعد دقائق وصل

الجميع إلى مدخل النادي.

فتقدمت إحدى العاملات لإرشاد الأسرة إلى قاعات الرياضة وبركة السباحة بملحقاتها، لقد كان النادي شاملاً ورائعاً بحق، إضافة إلى النظافة والنظام كان كل شيء هناك مشجعاً، وكان يضم قاعة جيمنازيوم وقاعة إسكواش، إضافة إلى صالون تجميل وبار كبير به بعض المأكولات إضافة إلى المشروبات المختلفة، أما بركة السباحة وملحقاتها فحدث ولا حرج عن النظافة والهدوء.

وفي بركة السباحة قفز الرجل وولده والفتاتان، بينما جلست السيدة بملابسها في حوض الجكوزي ثم لحقت بهم في البركة، ولم يكن يوجد سوى بعض الفتيات الصغيرات اللاتي لم يتجاوز عمر أكبرهن ثمانية عشر ربيعاً وبعض النسوة الكبيرات في العمر، وأمضي الجميع ساعتين تقريباً في السباحة والجيمنازيوم ثم انصرفوا عائدين وكانت الساعة تقارب الرابعة والنصف بعد الظهر حيث شعروا بالإجهاد والحاجة للراحة فتوجهوا إلى النزل واستلقي الجميع على الفرش سعداء هانئين.

وفي الثامنة مساء كانوا على طاولة العشاء حيث تناولوا عشاءهم وبعد العشاء كانت الجلسة الاعتيادية مع بعض النزلاء ومدير النزل لتناول القهوة ثم الانتقال إلى حديقة النزل وكانت الفتاتان أيضاً تلعبان لكن شقيقهم لم يكن يلعب معهم.

وسأل الرجل وزوجته الفتاتان مستفسرين عن الفتى فقالت الصغرى: لقد ذهب باتجاه البحيرة وأشارت بيدها ولم يكن الغروب قد حل بعد، لكن الرجل اعتراه بعض القلق ونظرت الزوجة إلى زوجها فزعة خوفاً على ولدها، فحاول الرجل أن يطمئنهما بأن المنطقة آمنة وصغيرة ولا خوف على الفتى فهدأت قليلاً.

وأطل الأيرلندي من باب المدخل وهو يبتسم داعياً الرجل وزوجته إلى الجلوس معهم، وكان الثلج الذي يغلف بداية العلاقات والتعارف مع بعض النزلاء المقيمين لفترات تتراوح بين أسبوع وأسبوعين قد زال فلبى الرجل الدعوة بينما ظلت المرأة جالسة على طاولة الحديقة وبصرها معلق بالشارع المؤدي للبحيرة وقلق خفي يساورها حول ابنها، وما هي إلا فترة زمنية قصيرة لم تتجاوز نصف الساعة حتى كان الفتى قد عاد من جولته السريعة فاطمأنت عليه وطمأنت والده.

كان الفتى قد قرر أن يزور الغابة وحيداً وأن يمضي قسماً من الليل هناك باحثاً عن حلمه، وأسرها في نفسه وعزم على ألا يطلع أبويه على ذلك، وأرهقه التفكير فيما سيكون عليه حال أسرته إن تغيب عنهم في تلك الأصقاع من بلاد غريبة، لكنه أراح نفسه من عناء التفكير مقتنعاً نفسه بأنه يتخذ الخطوة الصحيحة.

قرر أن ينسل منهم بعد العشاء وعادة يكون الغروب هناك متأخراً بين التاسعة مساء وبين العاشرة، وبالفعل انسل الفتى من بينهم بعد تناول العشاء وفي أثناء انشغال والده في حديثه وجلسته مع النزلاء في ردهة الاستقبال هبط الدرج الحجري الممتد بين مروج حديقة النزل صوب الشارع العام. ثم انحدر يساراً تجاه البحيرة وهناك دار حولها في نفس الطريق الذي سلكوه بالأمس داخل الغابة وهو يشعر أن نداء قويا داخله يدعو للذهاب، وحين أصبح وحيداً داخلها، بدأ يشعر بالخوف لكنه ظل يتابع مسيره حتى بلغ الخوف منه مبلغه، وطبيعي أن يشعر فتى غريب عن المنطقة بخوف خاصة أن قدماها لم تطأها إلا قبل أربع وعشرين ساعة مضت وفي بلد غريب لا يفهم لغته ولا يتحدثها والليل يزحف بظلامه المخيف على الغابة.

وترجع الفتى سريعاً حتى وجد نفسه على الطريق العام فارتد عائداً وهو يركض إلى النزل حيث شاهد أمه وهي تترقب عودته بقلق. وكالعادة نهرته والدته ونهته عن إبعاده وحيداً عن باقي أفراد الأسرة وطمأنتها الفتى وهو يشعر بحزن داخلي وإحباط لم يظهرهما.

ثم صعد وحده إلى غرفته ووقف يلقي من نافذتها نظرة على التلال التي تحولت إلى اللون الأسود الداكن والهدوء الذي يلف المنطقة وأخذ يحدق بعينه بين كتل السحب الداكنة التي تغطي سماء المنطقة فوق الغابة وبين التلال متخيلاً أنه سيرى طبقاً طائراً يحط من بينها بين أشجار الغابة.

وظل واقفاً إلى أن أصبح الفضاء والتلال أمام عينيه ساحة سوداء مخيفة، فاستدار وضغط على زر تشغيل التلفاز وحول قنواته حتى عثر على قناة بها أغاني غربية رائعة فجلس يتابعها.

وبعد قليل فتح باب الغرفة ليجد والده أمامه وهو بادي الغضب وأخذ يعاتبه ويلومه على ذهابه وحيداً ومبدياً خوفه من أن يمسه مكروه، ثم احتضنه في صدره وقبله على رأسه فانفجر الفتى باكياً وهو يضع رأسه في صدر أبيه شاعراً بطمأنينة وراحة هائلة.

لقد انتابه نفس الشعور الذي انتابه أول مرة حين جلس مع أبيه هناك في منزلهم وهو يشاهد مناظر القتل والدمار والأشلاء والدماء على شاشة التليفزيون، تلك المشاهد التي خدشت ومزقت نفسه ومشاعره وجعلت شعوراً مروعاً بالظلم والخوف يسكن نفسه الصغيرة وجعلت ذلك الخطر موجوداً وقريباً منه ومن أسرته.

ألم يكن ذلك الشعور بالخوف بعيداً أيضاً عن الأطفال الذين قتلوا هناك قبل أن يدهمهم الموت والدمار؟ بلي، لقد كان بعيداً يوماً ما، وها هو يأتيهم ليحصدهم ويمزق أجسادهم ويجعلهم أشلاء ممزقة يلملمونها ويضعونها في أكياس...

لقد شعر الفتى بمسئولية عن حماية أهله وأخواته... ذلك الأب الحنون وتلك الأم العطوف والأخوات البرينات.

كان الحب هو الدافع الأكبر للخوف والقلق والتوجس ومن ثم التمزق.

وتمني الفتى لو ظل العمر كله في صدر أبيه، ذلك الصدر القوي والحنون الذي يحميه من الخوف..

لكنه يخاف عليه أيضاً من هؤلاء الظالمين الغزاة القتلة ومن طائراتهم وقذائفهم المدمرة القاتلة والفتاكة.

دخلت الأم وبناتها إلى الغرفة ليشاهدوا منظر الفتى الباكي في صدر أبيه وتخيلت أن والده قد ضربه أو عاقبه بقسوة نتيجة لتصرفه.

فصمتت وأخذت بناتها إلى الغرفة الأخرى، بينما أخذ الأب يعد ولده بجولة يومية عبر الغابة إلى قمم التلال والذهاب إلى النادي وزيارة مدن صغيرة قريبة لا تبعد سوى أميال قليلة للتسوق والتنزه.

ثم طلب من ولده أن يذهب ليغتسل وينضم إليهم حيث يشاهدون التلفاز وإن شاء فسأخذه معه للتنزه عبر شوارع القرية الهادئة أو حتى على شاطئ البحيرة رغم الظلام، فمن الممكن الجلوس على تلك القاعدة الخشبية على الشاطئ المضيء بأعمدة الإضاءة الفلورسنتية فاختار أن يغتسل وينام، لقد شعر بحاجة قوية للنوم ليريح جسده وعقله من عناء اللحظة والشعور.

اغتسل الفتى وارتدي ملابس نومه ثم أغلق الباب الفاصل بين الغرفتين وأطفأ أنوار غرفته بعد أن أغلق النافذة وترك ستارها مفتوحة على الجنب ليتسلل منها ذلك الضوء الخافت المنبعث من مصابيح الإضاءة الخارجية حول النزل، وما هي إلا دقائق حتى راح في نوم عميق. صفت السماء من السحب في الهزيع الأخير من تلك الليلة وظهر القمر بدرًا وكان الجو هادئًا هدهدًا يلف المكان كله حيث لا يكسر ذلك الهدوء سوي حركة حشرة تتحرك بين نباتات الحديقة، ما عدا ذلك كان الصمت هو الشيء الوحيد الذي يتحكم في دقائق الزمن خلال تلك اللحظات.

وفي تلك الأثناء فتح الفتى النافذة بهدوء والتي كانت لا تبعد عن سطح الأرض سوى أقل من ثلاثة أمتار ونصف المتر. ونظر الفتى أسفلها فوجد المظلة المبنية على مدخل النزل والممتدة بحذاء أسفل النوافذ العلوية وتحتها مباشرة المقاعد البيضاء الملتفة حول المظلة الشمسية أمام المدخل وكان زجاج النافذة من النوع الذي يفتح من أعلى إلى أسفل والمحاط بإطار خشبي عريض.

فسحب الفتى بهدوء ثم انسل خارجًا بعد أن رفعه إلى أعلى دون أن يحكم إغلاقه مستندًا إلى مظلة الباب الحجرية التي تعلق بها وتدلى إلى أن شعر بتلامس قدمه مع ظهر المقعد الأبيض، ثم ألقى بنفسه فإذا بقدميه على المقعد، وما هي إلا لحظات حتى توجه إلى البحيرة وهو يشعر بنشوة غريبة وحيوية عالية وظل يسير حتى أصبح على مشارف الغابة.

ودون خوف أو وجل دلف إلى داخلها مهتديًا بالضوء الذي يلقيه القمر من بين الأشجار وشعر بأن الخوف قد زال منه نهائيا وهو يتقدم حثيثًا حتى وصل إلى مساحة من المروج العشبية الخضراء خارج حيز الأشجار يغمرها نور القمر، وعلى حافة جذع شجرة استند إليه أخذ ينظر مهوورًا نحو الحافة الأخرى ثم تطلع بعينه إلى القمر ولم يستطع أن يدير وجهه عنه كأنه مأخوذ به وشعر كأنه يري شيئًا يتحرك قادمًا باتجاهه في المسافة الفاصلة بين القمر والمكان الذي يقف به....

وما هي إلا لحظات حتى هبطت مركبة فضاء تشبه تمامًا الطائر ودون ضجيج توقفت على مقربة منه، وشعر بارتعاشه أثارت حواسه بين الخوف والرغبة في التقدم، وأحس كما لو أن هناك من يناديه ويأمره بأن يتقدم بلطف ودون فظاظة...

لكنه لم ير أحدًا حتى تلك اللحظة يخرج من المركبة المتوقفة على بعد أمتار قليلة منه فحاول السير على قدميه باتجاهها، لكنه كان يرتعش وكان قدماه لا تقويان على حمله.

وفجأة اندفعت حزمة ضوء قرمزي من إحدى الفتحات بها تجاهه وشعر بنفسه محمولاً، وبهدوء مريح وجد نفسه داخل المركبة يحيط به أربعة من مخلوقات فضائية قريبة الشبه في تكوينهم الجسدي بالإنسان، كانوا يتحركون بانسيابية عجيبة وبدعوا بالتحدث إليه..

لم يفهم الفتى شيئًا من حديث أحدهم الذي وجهه إليه حيث لم يسمع صوته بل كان الفتى يفهم دون سماع وكان ذلك المخلوق كان يكتب على عقله وذاكرته ما يريد أن يقول، لقد كان يرحب به بشكل مؤثر في تعبيرات فهمها الفتى بشكل جيد حيث خاطبة قائلاً:

- لقد شعرنا في عالمنا الخاص بمعاناتك ورغبتك في الحديث إلينا وزيارتنا وقد جئنا لنلبي لك رغبتك أيها الفتى الطيب. ثم استطرد يسأل: هل تشعر بخوف أو تعب؟ فأجاب الفتى:

- لا.. أبداً... إنني بالفعل سعيد بمقابلتكم وأحلم بذلك منذ فترة طويلة.

فقال المخلوق: - نحن نعلم ذلك منذ بدأت تفكر بشكل جدي في مقابلتنا لكننا كنا نريد أن نتأكد من رغبتك.

فحول الفتى رأسه متطلعاً إلى المركبة من الداخل وقال:

- هل هذه المركبة هي ما نسميها نحن الطائر؟ فأجاب المخلوق الذي كان يبدو عليه أنه قائد المجموعة الفضائية:

- نعم بالتأكيد وسوف نجعلك تشاهد ما تريد فيها، لكن أود أن أسألك سؤالاً تجيبني عليه بصراحة: ما الذي دفعك للتفكير في مقابلتنا بهذا التركيز النفسي العالي؟ فأجاب الفتى: إنني أشعر بالخوف في هذا العالم...

إنهم يقتلون الأطفال ويمزقونهم بقذائفهم الجهنمية ويهدمون البيوت ويشردون من تبقي من أصحابها على قيد الحياة، لذلك فأنا أشعر بالخوف والحزن.

فيبدأ وكان المخلوق الفضائي يضحك ويتنسم ثم قال له:

- أيها الفتى إننا مخلوقات خلقها الله الذي خلق كل شيء ونحن نعيش في إحدى المجرات البعيدة فوق أحد الكواكب هناك وقد زرنا كوكبكم هذا المسمى بالأرض مرات عديدة، حيث كنا نود أن نبنى اتصالاً معكم يقوم على مبادئنا هناك التي فطرنا الله عليها من خير وحب ومودة جبلنا عليها، فوجدناكم أنتم المخلوقات الذين تعيشون هنا لا تستطيعون استثمار جوانب الخير التي خلقها الله فيكم وتركتكم طاقات الشر في داخلكم تعثُّ بينكم ظلاماً وفساداً.

ثم توقف لبرهة وأخذت الرسائل تندفق مرة أخرى على عقل الفتى الذي كان يشعر بقوة ذاكرة خارقة في تلك اللحظات يسجل بها هذا الحوار....

حيث قال المخلوق: إنه قدركم أن تعيشوا أعماركم القصيرة لا تشبعون من خير أو شر.... متغيرين.... متقلبين... أنانيين... أغبياء... حاقدين... لا أمان لكم رغم نعم الله عليكم.

فقال الفتى متلعثماً: - لكنني لست كذلك ولا أي من أهلي.. إننا طيبون.

فقاطعه المخلوق قائلاً:

- إن حكمة الله قضت بأن يكون هناك طيبون ونحن نعلم أن فيكم أناساً جيدين وخيرين وطيبين وهذا أمر طبيعي وإلا فلمن يوجد الشر إذن؟ وكيف يدور الصراع إذا لم يكن هناك خيرون في عالمكم؟ وعلى الخيرين الطيبين أن يقاوموا الشر بكل طاقاتهم.

فقال الفتى وهو يشعر بثقة: - لكننا ضعفاء لا نملك ما يملكون من قوة إن قوتهم ساحقة ماحقة.

فأجابه المخلوق وهو يوجه يده المبهمة الملامح إليه قائلاً:

- إن ما تقوله غير صحيح.. إنكم تملكون أقوى الأسلحة على الإطلاق وهو سلاح ليس ظاهراً ولا يمسك باليد، إنه داخلكم ولكن غباءكم هو الذي يخفيه عنكم. إنكم تشعرون بالضعف والذل رغم كنوز العزة والمنعة والقوة داخلكم...

إنه الإيمان أيها الفتى الطيب.. الإيمان بالخالق الأعظم، وبقدرته العظيمة والالتزام بتعاليم رسالته التي حملها وبلغها لكم رسول كريم اسمه محمد.

ثم سأل قائلاً:

- هل تعلم أيها الفتى الإنسان أننا نراكم منذ آلاف السنين ونعلم كل شيء عنكم، إننا نبعد عنكم في الفضاء مسافة ألفي عام حسب سرعة الضوء وقد منحنا الخالق العظيم أعماراً طويلة وقدرة على الحركة تفوق ما توصلتم أنتم إليه بمسافات نوعية وزمنية هائلة.

فقال الفتى: - كيف أيها المخلوق الطيب؟... خبرني بالله عليك.

فأجابه المخلوق قائلاً:

- إننا نسير بمركبتنا في الفضاء بسرعات تفوق سرعة الضوء.

ثم سأله: هل تعلم شيئاً عن سرعة الضوء؟ فأجاب الفتى بالنفي.

فقال المخلوق: إنكم تحسبونها على أساس سرعة الضوء القادم لكم من الشمس والتي تبلغ بحساباتكم مائة وستة وثمانين ألف ميل في الثانية الواحدة بحساباتكم، لكننا منحنا القدرة على الحركة بسرعة تفوق ذلك آلاف المرات، لكن دعني أولاً أغذي ذاكرتك حتى تستوعب تمامًا ما

أقول...

ثم تقدم منه ببطء وهو يركز تركيزاً قويا على عقله حتى التصق به ووضع فتحتي عينيه على عيني الفتى ممسكاً رأسه بكفيه المبهمتين وشعر الفتى في الحال بشعور فائق على التركيز والقدرة العقلية، وبعد لحظة بدت كأنها جزء من الثانية ابتعد عنه بسرعة غريبة وكأنه يخشى عليه من تلك الطاقة الموجهة التي شحن عقل الفتى بها.

ثم قال له: الآن سوف تفهم وتعي ما أقول.

استطرد: - إذا أردت أن تحسب سرعة الضوء التي حسبها علماءكم في السنة الأرضية فإنها تكون كالاتي: عليك أن تضرب مائة وستة وثمانين ألف ميل في ستين لتحسب السرعة في الدقيقة الواحدة ثم في ستين أخرى لتحسب السرعة في الساعة ثم في 24 لتحسب السرعة في اليوم ثم في 365 لتحصل في نهاية الأمر على مسافة الضوء في سنة، ثم قال بسرعة: إنها ست ملايين مليون ميل...

وكان الفتى قد استطاع أن يصل إلى نتيجة الحساب قبل أن يتفوه بها المخلوق. ثم استطرد المخلوق متسائلاً هل فهمت ما عنيت به؟ ففغر الفتى فاهه وهو يقول مجيباً المخلوق الفضائي:

- نعم تماماً أفهم ما تقول وأعيه بدقة أيها المخلوق الطيب، لكن قل لي من أي مكان في الفضاء جئتم هنا؟ فأجابه المخلوق قائلاً:

- من نجم يبعد عنكم بسرعة الضوء التي تعرفونها ألفي سنة كاملة، يعني أنكم لو تمكنتم هنا في الأرض من صنع مركبة فضائية تسير بسرعة الضوء وهي 176 ألف ميل في الثانية الواحدة وحاولتم الوصول إلينا فستصلون إلينا بعد ألفي عام.

فسأله الفتى قائلاً: قلت لي إنكم تروننا وتتابعون أخبارنا منذ آلاف السنين، كيف يكون ذلك؟

فأجابه المخلوق الفضائي قائلاً: - لو أخذناك معنا الآن إلى كوكبنا ونحن نقطع تلك المسافة في زمن يعادل ثلاث ساعات بحساباتكم الزمنية فسوف يصبح عمرك حين تعود إلى الأرض بنفس المركبة أكثر من أربعة آلاف عام.

ولو أنك ذهبت معنا فسوف تري هذه الأرض من مرصدنا هناك قبل ألف عام مضت. كان الفتى يفهم تماماً ويتسوعب معاني الرسائل العقلية التي تندفق على ذاكرته وهو مأخوذ الحواس. فاستطرد المخلوق قائلاً:

- إنكم حين تنظرون ناحيتنا فإنكم في الحقيقة تنظرون إلى الماضي البعيد؛ حيث إن اللحظة التي ترون فيها انعكاس الضوء الواصل إليكم والمنعكس على كوكبنا فإن ذلك الضوء يستغرق ألفي عام حتى يصل إليكم.

قال الفتى متسائلاً وهو مأخوذ الحواس:

- هل يمكن أن آتي معكم لأزور كوكبكم هذا؟ فتوجه المخلوق الفضائي إلى ناحية باقي مجموعته متحدثاً إليهم بلغة لم يفهمها الفتى، وما هي إلا لحظات حتى أبلغه المخلوق الفضائي بموافقة شريطة أن يعود فوراً... فوافق الفتى.

فتقدم إليه اثنان من المجموعة حيث اقتادوه إلى مكان داخل المركبة وألبسوه رداء خاصاً شعر فيه الفتى بأنه معزول تماماً لكنه لم يشعر بضيق، ثم انطلقت المركبة دون أن يشعر بأدنى تأثير أو ضيق...

كان داخل لباسه في حركته كأنه في غرفته بمنزله تماماً ولا يوجد أي تغيير - حسبما شعر - بهيئته إلى حد ما.

ولم يشاهد منافذ يري من خلالها خارج المركبة، وما هو إلا وقت قصير لم يزد عما قاله المخلوق الفضائي حتى شعر برسالة تأمره بلطف بمغادرة المركبة فوجد نفسه يتحرك باتجاه فتحة خاصة إلى حيث أخذته الضوء هناك على سطح كوكب تلك المخلوقات الرائعة. وداخل مكان متسع أخذ الفتى على عجل يلتقي بمجموعة أخذت مكانها في صدر ذلك المكان المتسع والمهيب.... وبعد لحظات بدأت مناقشة مثيرة وحوار مع الفتى من قبل المجموعة من المخلوقات التي كانت بمواجهته على شكل قوس. وجاءت إشارة الحديث الأولى من الجالس في منتصف ذلك القوس الذي بدا وكأنه كبيرهم، بينما كان المخلوق قائد المركبة الذي حدثه لدى اللقاء الأول جالساً ضمن المجموعة. قال المخلوق:

- أيها الفتى القادم من الأرض مع مركبتنا نحن نرحب بك هنا في كوكبنا الذي حلقتنا حوله ونعيش عليه منذ الأزل. لقد جئت إلينا بمحض رغبتك وإرادتك ولم نجبرك على ذلك حيث التقطنا أول إشاراتك التي تظهر رغبتك في مقابلتنا منذ فترة وكنا فقط نريد التأكد من رغبتك تلك....

وحين تأكدنا اتخذنا قرارنا بإحضارك هنا ومقابلتك وها أنت الآن معنا. فقال الفتى: - نعم هذا صحيح لقد عانيت كثيراً هناك على الأرض وتعذبت نفسي مما شاهدته وأشاهده من قتل وتدمير وإبادة في أبناء جنسي، وحين قرأت عنكم ما كتبه وذكره أولئك الذين قابلوكم على سطح الأرض شعرت بأنني أريد الهروب من ذلك العالم الذي لا يرحم ولا يعرف العدل والحق.

ولذلك لم يكن أمامي من سبيل سوي الأمل والحلم في مقابلتكم؛ علني أجد متفلساً لحزني وطمأنينة لقلبي وهو اجسي.. ثم صمت قليلاً. فقال المخلوق:

- إن عالمكم أيها الفتى - كما عرفناه من خلال زيارتنا ومتابعتنا له - خلق على أساس الصراع بين الخير والشر كما تعرفونه، رغم أن الخالق العظيم الذي خلق العالم ونظمه وسيره أرسل لكم دستوراً هادياً ونوراً تتيبنون به الحق من الباطل والعدل من الظلم. فأجابه الفتى: - نعم، أشهد بذلك لكن أيها المخلوق إن الحق دائماً أراه لا ينتصر، حيث الغلبة للأقوياء الذين يفرضون سلطانهم بالقهر والظلم وبالقوة العاشمة.

رد عليه المخلوق قائلاً:

- أنت مخطئ أيها الفتى باعتقادك أن الحق لا ينتصر؛ لأن الحق هو الإيمان وإذا تمكن الإيمان من صاحب الحق فلا بد أن ينتصر. إن باطلكم وظلمكم أضعف مما تتخيلون لكنكم أنتم أصحاب الحق ضعفاء الإيمان وحين تستسلمون بضعفكم الإيماني للباطل فإنه يتحول إلى حق للظالم، وليس بشرط أن يتحقق العدل في حياة المظلوم، إن الحق ناموس الحياة الصحيح، لذلك لا بد من يوم ينتصر فيه مهما بلغت قوة الظالم ومهما طال الزمن.

فسأله الفتى قائلاً: - أنتم تأتون إلى الأرض في زيارات خاطفة، ماذا تريدون من أهل الأرض أيها المخلوق؟ ولماذا لا تبنون علاقات معنا هناك؟ فشرع الفتى بعد سؤاله أن حديثاً يدور بين مجموعة المخلوقات أمامه وبعد انتهاء حديثهم بلغتهم الخاصة بينهم وجه إليه المخلوق حديثه قائلاً:

- إننا لا نريد شيئاً منكم أيها الفتى بل نريد مساعدتكم لكننا لا نستطيع مد يد المساعدة إلى من يحاولون إيذائنا، إنكم متخلفون عقلياً وتحاولون الاعتداء على بعثاتنا دائماً وتتخيلون أنكم متقدمون في علومكم رغم أنكم ما زلتم لا تستطيعون حتى الوصول إلى مدي أبعد من مسافة يقطعها عندنا الأطفال في دقائق وتتخيلون أنكم غزوتهم الفضاء.

واستطرد يقول: إننا لا نبني علاقات مع بشر جبلوا على الشر والغدر والأنانية، وإن عالمنا هنا على هذا الكوكب لو تعرض - لا قدر الله - إلى فيروس قحط أو كراهية أو أنانية كما هو الحال عندهم لفنينا جميعاً عن آخرنا في لحظة.

إننا هنا لا نعرف شيئاً عن ذلك وليس له مجال عندنا، وحين تذهب بعثة من كوكبنا إلى أرضكم فإننا نحاول أحياناً الوصول إلى سر هذا الكم العظيم من الشرور، ربما نستطيع يوماً ما أن نساعدكم على الشفاء من تلك الأمراض الفتاكة التي تعصف بعالكم. فسأله الفتى: - هل أستطيع العيش معكم هنا أيها المخلوق؟ فأجابه المخلوق فوراً: - هذا مستحيل ولا يمكن وسوف تعود الآن فوراً إلى كوكبك الذي أتيت منه.... ثم استطرد المخلوق قائلاً:

- وسوف نقدم لك أيها الفتى الطيب هدية تأخذها معك....

وبعد صمت استطرد قائلاً: إنها ليست شيئاً تحمله ولكنه شيء لن تستطيع أن تراه أو تلمسه، إنه شيء في طاقتك وعقلك سوف نضيفه لك لتستخدمه في الوقت الذي نشاء.

لكنني أحذرك أيها الفتى بأنك ستفقد يوماً ما.

فسأله الفتى: - كيف سأفقد؟ ولماذا؟ فأجاب المخلوق:

- ستفقد لأنك من سكان كوكب الأرض وتحمل طباعهم وفيروساتهم.

وشعر الفتى بتململمهم من أسئلته الكثيرة فأشار إلى المخلوق قائلاً:

- اسمح لي بسؤال آخر أيها المخلوق... فأوماً المخلوق موافقاً.

فقال: هل لي أن أري الأرض من هنا يا سيدي؟ فأجابه المخلوق قائلاً:

- إنك ستري الأرض من هنا لكنك سوف تراها قبل ألفي عام مضت وترى أحداثها تتوالى منذ ذلك التاريخ وحتى الآن إن أردت، فالصورة التي سوف تراها من هنا تسبق تاريخكم زمنياً بألفي سنة.

بمعنى أن السفر من هنا إلى كوكبكم الأرض لو بدأ الآن حسب سرعة الضوء البالغة 186 ألف ميل في الثانية الواحدة بمقاييسكم وعلى اعتبار أن التاريخ عندكم اليوم هو سنة 1996 والمسافة بيننا وبينكم حوالي ألفي سنة ضوئية فإنك سوف تصل الأرض هناك بعد ألفي عام، وعلى ذلك فإنك سوف ترى الأرض من هنا قبل ألفي عام مضت.

فغفر الفتى فاهه قائلاً: - إنني أيها المخلوق لا أكاد أستوعب ما حدث..

هل يعني ذلك أن ألفي سنة مرت من التاريخ حين وصلت إليكم، وستمر ألفا سنة أخرى حتى أصل للأرض مرة أخرى؟! فقال المخلوق:

- نعم هذا صحيح، إن وصولك إلينا في مركبتنا لم يستغرق وقته أكثر من ساعة ونصف الساعة بمقاييسكم المتواضعة، وعليه فقد عدت بوصولك هنا إلى الخلف في رحمة تاريخكم ألفي سنة، وحين تصل إلى بيتك هناك فإنك تكون قد بلغت من العمر أكثر من أربعة آلاف عام.... وصمت قليلاً....

ثم تحرك من مكانه بعد أن أشار إلى مساعديه قائلاً: تعال الآن لأريك كوكبكم منذ ألفي عام مضت.

ثم أردف يقول: اعلم أيها الفتى أننا قرييون منكم، فهناك كواكب أخرى أبعد منا بحيث يصعب علينا نحن الوصول إليها في مجرات بعيدة. وجد الفتى نفسه أمام جهاز عظيم به كرة ضخمة فوقف أمامها والمخلوق إلى جانبه، وما هي إلا لحظة حتى بدأت مشاهد الأرض تتوالي، وتجمد الفتى وهو يرى مشاهد من تاريخ عظيم لأمته ثم وهو يري جحافل النور من أبناء أمته تطرق مداخل بلاد خيم عليها ظلام الجهل والكفر، ثم رأى أجداده وهم يحملون رايات ترفرف في عزة وكرامة، ثم رأى التسامح العظيم والعدل والحرية يستمتع بها العالم الذي أشرقت عليه شمس الإيمان بالواحد الأحد.

تنتابح المشاهد.. فيري أناساً قلوبهم عمرت بالإيمان ونوره يحطمون قلاع الظلم والقهر والطغيان لا يغريهم مال ولا زينة....

يقدمون أنفسهم وحياتهم رخيصة في سبيل الحق....

ثم فجأة يسمع تراتيل هائلة آتية من ذلك الماضي العريق....

مسبحة بحمد الله....

وهي تتلوا آيات من الذكر الحكيم وحين يسمعها بوضوح أكثر يري بنفس الوضوح كيف تتهاوي الشياطين محترقة وكيف يزهد الباطل بكل جبروته وينسحق رغم قوته وبطشه....

وتتوالى المشاهد ليرى الظلم يحاول النهوض من كبوته....

ويمسك الفتى أنفاسه داخل لباسه الفضائي حين بدأ يري الناس وقد بدءوا ينصرفون إلى بهانس الدنيا وزينتها ويشيدون القصور ويتصارعون بينهم وتخفت التراتيل شيئاً فشيئاً، وكلما خفتت شيئاً نهض الظلم والطغيان من وكرهما وتحركا خطوة حتى خفتت التراتيل تماماً، وهنا رأى الفتى أنياب وحوش ضارية تزحف وتمشي على أربع وهي تمتد وتتمدد في منظر مرعب لتقترب من أجداده وأهله وهم ساهمون غافلون يتصارعون فيما بينهم على أشياء تافهة زائلة لا يرون الخطر وهو يقترب وكل منهم يوجه سيفه نحو أخيه.

وما هي إلا لحظات حتى تمكنت الوحوش من رقاب الناس وبدأت تقتل وتمزق فيهم وتحولهم إلى أشلاء وهم عاجزون ضعفاء بطيئو الحركة لا يستطيعون حتى أن يرفعوا سيوفهم في وجه الظلم وفي وجه القهر والطغيان.

ثم تظهر صورة سوداء قائمة فوق تلك البقعة من الأرض لتنتفتح فيها فتحة صغيرة مضيئة يرى من خلالها والده وأخواته وهم خائفون يرتعدون والقذائف تنفجر مقتربة منهم حتى كادت أن تصل إليهم لتمزقهم.

وفي تلك اللحظة كانت فرائص الفتى ترتعد من الخوف وصورة الرعب مرتمة على ملامحه، ثم مد يده في محاولة لحمايتهم من الشطايا الحارقة القاتلة التي تتطاير من حولهم فاصطدمت يده بحائط صلب وأدرك أنه عاجز تماماً.... فصرخ صرخة هائلة تخيل خلالها أن سكان العالم بأسره قد سمعوا صرخته.

في تلك اللحظات نهضت الأم والأب في فزع من نومهما وأسرعوا إلى الغرفة التي ينام فيها الفتى فوجداه جالساً على فراشه ووجهه كوجوه الأموات وهو يرتعد خوفاً.

فضمته الأم إلى صدرها، بينما أحضر الأب كوباً من الماء وجلست الفتاتان على حافة الفراش فزعتين تبكيان.

لاحظ الأب فزعاً أن اللون الأبيض قد تسلل إلى شعر رأس الفتى الغض الصغير، وأن تجاعيد قد ظهرت على بشرة وجهه فزاد انزعاجه وفزعه.

وكانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف صباحاً حين أسرع بالاغتسال وارتدى ملابسه بعد أن هدأ الفتى قليلاً وبدأت أنفاسه تنتظم إلا أنه كان شارد الذهن مذهولاً ينظر إلى أمه وأبيه وأخواته وكأنه يراهم لأول مرة بعد غياب طويل....

هبط الوالد الدرج مسرعاً إلى حيث استقبله الأيرلندي صاحب المنزل فطلب منه الاتصال بطبيب على وجه السرعة، حيث إن ولده متوعدك قليلاً فهذه الأيرلندي وطمأنه، وما هي إلا دقائق حتى كان الطبيب قد وصل ليفحص الفتى.

أوصي الطبيب بضرورة انتقال الفتى إلى المستشفى بعد أن أعلم الوالد بما حدث لولده من تغيرات نفسية وشكلية بدت على لون شعر رأسه وبشرته وكان لابد من الانتقال سريعاً والعودة إلى مدينة لندن حسبما أوصى الطبيب.

كان الفتى صامتاً وهادئاً وهو يتعرض للفحص بالأجهزة الطبية الحديثة والمتقدمة التي سجلت مؤشرات غير عادية وذبذبات هائلة المستوي في جسم الفتى وأجهزته أذهلت الأطباء، حتى أن تلك الأجهزة أعطت المؤشرات القسوى التي لا يمكن أن تنطبق بياناتها على أجهزة جسم إنسان طبيعي.

واحتار الأطباء في حالة الفتى الصامت الذي لا يتحدث إلا نادراً إلى أبيه وأمه وأخواته....

كان الفتى يشعر بعقله - الذي تجاوز حد النضج حتى بلغ أوجه - أنه لا شيء يضيع أو يتلاشى....

كل الأحداث تظل مسجلة ومحفوظة على مسار الزمن الذي نأتي إليه زائرين بالمولد ونذهب عنه راحلين بالموت والفناء، إن كان خيراً فخير وإن كان شراً فالحساب أت لا محالة والنتيجة معروفة ومؤكدة وسيقف الجميع يوماً ما بين يدي الحق العدل سبحانه وتعالى لينال المجرمون الأشقياء جزاء جرائمهم....

ويُمنح المظلومون حقوقهم لا يظلمون فتياً. ويظل حوار الفتى مستمرا وهو في لحظات الانعتاق والانزعال الأولي التي أصابته نتيجة رؤياه. وأخذ يتذكر في لذة ونشوة مشاعره خلال سفره العجيب أن المركبة الفضائية كانت وكأنها واقفة لا تتحرك، بينما الزمن يمضي والسنين تدور ليكون الأمر في النهاية أن أحداثاً وقعت في الماضي وهناك أحداث تقع الآن وسوف تقع أحداث أخرى في المستقبل....

قدر ما تستطيع عقولنا أن تفكر وتستوعب بمحدودية قدرتها. هل نحن زوار وسائحون في رحلة الحياة والزمن، حملتنا سفينته رغماً عنا لحكمة يعلمها الذي خلق وسوى لتتوقف تلك السفينة في محطات؟ ومحطتنا الآن هي الحاضر بأحداثه بعد أن توقفت في الماضي في محطات لا حصر لها، سرعان ما تخيلنا أنها اختفت وضاعت في غياهب الزمن....

لكن اتضح أنها لم تضع....

فهي مازالت هناك....

غاية الأمر أننا كبشر محدودي العمر والقدرة والحكمة مررنا بها....

زرناها وشاهدنا أحداثها، وهذا هو الماضي بأحداثه التي لم تضع وما زال المستقبل في علم الغيب - لا يعلمه إلا خالق الزمن والأكوان عظيم القدرة والجبروت الحكيم المتعال - مليء بمحطات أخرى سوف تأتي وكل ذلك مسجل ومعلق في ذاكرة الزمن محفوظ بأمر الخالق العظيم.... لا يموت ولا يضيع ولا يفنى.

ويدخل والد الفتى عليه في غرفته ليجد ولده واقفاً أمام نافذة غرفته بالمستشفى ينظر نحو السماء وهو يشعر بنشوة غريبة وتبدو عليه دلائل السعادة.

وقف أبوه خلفه وهم بوضع يده على كتف ولده فاستدار الفتى ليوافقه والده مبتسماً وهو يقول: مرحباً أيها الأب الحنون.... لا تحزن أو تتألم فأنا بخير.

وكان الوالد قد التقى بالأطباء الذين يشرفون على علاج الفتى، حيث أخبروه بأن ولده صحياً على ما يرام، لكنهم حائرون وعاجزون عن فهم النتائج والقياسات الطبية التي تظهرها الأجهزة وأخذوا يستفسرون عن تاريخ الفتى الطبي وفي نهاية الحديث قالوا:

- إنه ربما كانت حالته من الحالات النادرة الحدوث، وإنه أيضاً ربما يعاني من شيخوخة مبكرة، إلا أنهم أجمعوا على عجزهم التام عن فهم ما يحدث لهذا الفتى التي تعد حالته غير طبيعية تماماً وأوصوا بعرضه على أساتذة الطب النفسي، ولذلك كان الرجل ممزق القلب حزين المشاعر. فوجئ الرجل بولده فرحاً مبتسماً وسعيداً وهو يكمل حديثه معه قائلاً:

- سامحني يا والدي، لقد أحننتك وأشقيت أمني لكنني أعذك أن أكون بخير طالما كنتم كذلك. اطمأن الرجل واستبشر خيراً وقال لولده:

- يا بني، إنك ولدي الوحيد وأمك الآن قادمة خلفي مع أخواتك أرجو أن تطمئننا.

فأجابته قائلاً:

- لك ما تريد وسوف أفعله حتى لو لم توصني بذلك، إنني بالفعل بخير.

فعقب والده قائلاً: - سوف يأتيك الآن طبيب متخصص لفحصك أرجو أن تتحدث معه عما يجزرك ويؤلمك.

فقال الفتى:

- لا داعي لطبيب لقد أصبحت بخير وبصحة جيدة كما ترى.... ثم تساءل:

- هل ترى الآن أنني مريض؟ فتفحص الأب ولده متفرساً في وجهه ليجد أن الغضون التي كانت في وجهه قد زالت ولا يوجد إلا ثمة شعيرات بيضاء قليلة في شعر رأسه.

وفي تلك اللحظات دخلت الأم والأخوات وخلفهما الطبيب النفسي الذي أتى على عجل ليفحص الفتى، وطلب الطبيب ومساعدته إخلاء الغرفة من أهل الفتى فنظر الوالد إلى ولده الذي انبري يقول لأهله:

- يمكنكم أن تخرجوا وتنتظروا خارج الغرفة.... سيكون كل شيء على ما يرام بعد قليل.

كان الطبيب النفسي شهيراً ومتخصصاً في التنويم المغناطيسي، طلب على عجل ليفك لغز هذا الفتى الذي عجزت الأجهزة الحديثة عن تسجيل بيانات طبيعية لجسده وأجهزته الوظيفية، وكان الخبر قد انتشر، حيث تلقفته صحفية بريطانية شابة كانت صديقة لأحد الأطباء الذين أشرفوا على فحص الفتى في المستشفى، فجاءت ومعها أحد المصورين لتفوز بسبق صحفي مثير....

وبينما كان الأهل يغادرون غرفة الفتى كانت الصحفية تطلب من الطبيب الواقف في منتصف الغرفة إنذاراً بمقابلة الفتى وتصويره فطلب إليها الانتظار حتى ينتهي من عمله.

ظل الطبيب يحاول تنويم الفتى مغناطيسياً قرابة الساعة فلم يفلح أبداً في تنويم الفتى وشعر الطبيب في النهاية أنه قد فشل تماماً وأنه عاجز عن التغلب على نذبات الفتى العقلية، وتأكد أن الفتى يعاني من حالة غير طبيعية فانصرف، وهنا كانت الصحفية الشابة قد تحدثت مع والد الفتى ووالدته حول حالته وتاريخه والطواهر غير الطبيعية التي ظهرت عليه والتقط المصور لهم صوراً مختلفة في أثناء الحديث. وحين خرج الطبيب دخلت الصحفية وسألته إن كان الفتى يستطيع التحدث بالإنجليزية. فأجابها الفتى بلغة إنجليزية سليمة:

- نعم أستطيع التحدث بلغتك، لكنني أرجو ألا تكتبي عني شيئاً فأنا طبيعي تماماً... كان الفتى قد أدرك أن حالته قد تغيرت وأن قدراته البشرية قد زادت بشكل غير طبيعي لفت أنظار الأطباء إليه، وخشي الفتى من تسليط الإعلام الضوء عليه فشعر بالخوف من ذلك. فقالت له الصحفية الشابة أمام والده ووالدته اللذين أصابتهما الدهول نتيجة تمكنه من الحديث بطلاقة باللغة الإنجليزية....
- إنني أريد أن أكتب قصتك وأنشرها في صحيفتي وهذا يعد مكسباً كبيراً لك. واستطردت:
- إنك لا تعلم مدي الفائدة التي يمكنك أن تجنيها وأسرتك من ذلك التحقيق الصحفي الذي سوف ينشر في إحدى أشهر الصحف العالمية. فأجابها الفتى قائلاً:

- رجاء لا تكتبي عني شيئاً فالأمر لا يستحق هذا العناء.

فأشارت إلى المصور الذي أخذ يلتقط صوراً عديدة للفتى ووجه الفتى نظره إلى عدسة الكاميرا التي كانت تلتقط الصور بشكل طبيعي. وحين انتهى المصور من التقاط الصور قال لها الفتى: - يمكنك الآن الاكتفاء بالصور. فردت عليه قائلة:
- إذن سأكتب تقريراً صحفياً من خلال حديثي مع والدك ووالدتك وسوف أدمج تحقيقي الصحفي عنك بالصور التي التقطناها لك. فقال لها الفتى:

افعل ما شئت واکتبي ما تريدين وشكراً لك على كل حال. انصرفت الصحفية مع المصور وذهب والد الفتى ليطلب من إدارة المستشفى التصريح لهم بمغادرته بصحبة ولدهم والذهاب إلى مسكنهم هناك في البناية الحمراء.

فوافقت إدارة المستشفى على أن يتحمل الأب المسؤولية فوافق الأب وأخذ ولده برفقة أسرته وغادروا المستشفى جميعاً وهم في حالة طيبة. انطلقت الصحفية إلى مكتبها لتسجل هذا الحدث وبعد أن انتهت من كتابة تحقيقها الصحفي الذي سوف ينشر طلبت من المصور أن يأتي بالصور التي التقطت للفتى وأهله فأجابها المصور وهو في حالة من الدهول قائلاً:

- لقد احترق الفيلم بالكامل ولا توجد عليه أي صورة حتى الصور التي التقطت فيما بعد ذهبنا احترقت كلها.

فألقت الصحفية شيئاً كان في يدها اليميني على الطاولة وهي تمسك بيدها اليسرى سماعة الهاتف مذهولة وغازبة.

لقد أدركت أنها كانت بالفعل أمام حالة غير طبيعية، حيث تعمد الفتى أن ينظر مركزاً عينيه على عدسة الكاميرا ليمنعهم هي والمصور من نشر أي شيء حوله....

وبعد برهة من الدهول قالت بينها وبين نفسها:

- لا بأس، سوف أكتب التحقيق وأنشره بدون صور.... وسيكون ذلك في عدد الغد. وبالفعل وبعد أن انتهت من مراجعة تحقيقها سلمته إلى سكرتير التحرير في الصحيفة، موصية بنشره في عدد الغد بعد أن شرحت له ما حدث وأهمية نشر ذلك التحقيق المثير ثم انصرفت.

أفاقته الصحفية الشابة من نومها متأخرة كالعادة وقبل أن تغتسل التقطت الصحف من الصندوق الملاصق لباب منزلها وأخذت تتصفح صحيفتها التي ستنشر التحقيق فلم تجده رغم تأكدها من وضعه ضمن التحقيقات التي تقرر نشرها في بروفة الصحيفة مساء أمس.

فشاطت من الغضب ورفعت سماعة الهاتف محاولة الاتصال بسكرتير التحرير الذي لم يكن موجوداً في مكتبه وقت اتصالها فطلبته في منزله وسألته وهي غازبة عن سبب عدم نشر التحقيق.

فأجابها قائلاً: - لقد ذهبنا جميعاً حين وجدنا أن التحقيق قد طمس في جهاز الكمبيوتر قبل الطباعة بقليل وكادت المساحة أن تخرج بيضاء في الصحيفة لولا أن تداركنا الموقف بوضع حيز إعلاني.

صمتت الصحفية ولم ترد على سكرتير التحرير وشعرت بخوف غريزي وأدركت أن الأمر فوق طاقتها، وأن من الخطأ الإصرار على نشر التحقيق فأغلقت الهاتف وهي ذاهلة. كان الفتى يشعر بالجوع حين غادر المستشفى مع أسرته وكان والده قد قرر مع والدته السفر والعودة فوراً لعرضه على مطوع يقرأ عليه القرآن وربما قد مسه جان.

وهمَّ الرجل بالاتصال بشركة الطيران للحجز والعودة، بينما كانت أمه تعد الطعام الذي يحبه ولدها وجاءت الأب فكرة طارئة وهي أن يأتي بالمصحف الشريف الذي يحمله معه دائماً في حقيبة سفره الصغيرة الخاصة بأوراقه ويدع ولده يقرأ بعض سوره....

وبالفعل أتى الرجل بالمصحف وأعطاه لولده الذي تناوله ثم قبله وفتحه ليقرأ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...

[يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ]^٨ (الرحمن:33).

ثم قرأ: { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَنَقُوكَ فِي صَحْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }^٨ (لقمان:16).

ثم ختم قراءته قائلاً { لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }^٨ (البقرة:286).

انحدرت دمعتان حارتان على وجنتي الأب وامتدت يداه لتحتضن ولده الذي ارتمى في صدر والده، بينما كانت الأم تقف وهي تنظر إلى ولدها بإشفاق.

هكذا توالى الأحداث مقدره لحكمة يعلمها الخالق.

{وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ^ (النحل:8)

تم بحمد الله